صفحات من التاريخ الإسلامي

(دروس وعبر)

د.محمد فتحي عبد العال

إهـــــداء

إلى روحِ والدتي الغالية السيدة ناريمان عبد الفتاح أحمد زردق
(شهيدة كوفيد ١٩)
وإلى روحِ أخي العزيز الأستاذ أحمد فتحي عبد العال

وقد شاء الله أن يكون موعد رحيلهما في نفس اليوم من شعبان لعامين متتاليين أهدي هذا الكتاب متمنيا أن يكون صدقة جارية على روحهما
عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
(إِذَا مَاتَ الإنْسَانُ انْقَطَعَ عنْه عَمَلُهُ إِلَّا مِن ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِن صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو له) .

الكاتب

د. محمد فتحي عبد العال

مقـــــدمة

في إحدى المرات اصطحبني أحد الأصدقاء إلى دار لكفالة الأطفال وكان يتردد عليها لإعطاء دروس لغة عربية وتربية دينية للإطفال بشكل تطوعي جزاه الله عن ذلك خيرا ..جلست استمع له والأطفال من حوله يتابعونه باهتمام بالغ ..لكن الحقيقة أن ما توقفت عنده وتحدثت معه بشأنه حينها أني وجدته يشرح لهم الفتوحات الإسلامية وبطولات أصحابها على شاكلة وقف الصحابي البطل وأمامه ثلاثة من الكافرين فضرب بسيفه عنق هذا وطعن بالرمح ذاك وهذا أثخنه بالجراح حتى سقط وألقى بجسده مجهزا عليه وأخذ ماله ونسائه وكان يلخص دروسه هذه بشكل قصائد حماسية يرددها خلفه الأطفال ببراءة وعفوية وحماس...لاشك أن الفتوحات الإسلامية كانت طاقات من نور نشرت الدعوة الإسلامية في شتى أصقاع المعمورة ولكن طريقة تقديمها للنشء تحتاج لشكل تربوي وليس بهذه الطريقة التي تفجر لديهم طاقات من الشدة والعنف ونحن أحوج ما يكون لتهذيبهم والأخذ بأيديهم ليكونوا أفرادا أسوياء في المجتمع فهم أطفال فقدوا الأهل والأسرة والمثل الأعلى وسكنوا الشوارع وعانوا أهوالها من غياب القيم وشيوع الجرائم..

المشكلة التي اكتشفتها من خلال حواري مع صديقي ومعارضته الشديدة لي في رأيي أنه لم يفهم من الفتوحات مغزاها إنما ترسخ في ذهنه مشاهدها في النزال والمعارك والسبي والغنائم وهذا كل شيء وهذه ليست مشكلته

فحسب بل مشكلة قطاع عريض من الناس لم يفهم المغزى من الفتوحات ليميز ما كان ضروريا أن يكون وما لا ينبغي أن يكون ولم يمحص التفاصيل ليعرف الصواب والخطأ ومن ذلك يلتمس الدروس والعبر ولم يستوعب أن الفتوحات شأنها شأن تجارب إنسانية عدة يشوبها الخطأ أحيانا خاصة في مراحلها المتقدمة والعاقل من يستوعب الخطأ وينتهج الصواب.

لهذا أخذت على عاتقي مهمة إخراج هذا الكتاب بمنظور مختلف في قراءة واحدة من أخطر القضايا الإسلامية ولكن نظرا لأن الفتوحات الإسلامية تحتاج لمجلدات ضخمة وحاجتي أقتضت في هذا السفر الصغير أن يكون نواة وبداية لتسليط الضوء على قضايا فكرية محددة وإزالة الالتباس حول بعض المفاهيم الإسلامية الأساسية لذلك فقد اخترت عددا من المعارك من فترات زمنية مختلفة وتسليط الضوء فيها على هذه المفاهيم والقضايا من خلال أبطالها على أمل استكمال ما بدأته في كتب لاحقة إن كان بالعمر بقية بإذن الله..

والله من وراء القصد

د.محمد فتحي عبد العال

كاتب وباحث وروائي مصري

الفصل الأول

فـــــاتح إفــــــريقيا

يقول الله تعالى في كتابه الحكيم في سورة التوبة :

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١))

ومن هؤلاء الذين ينطبق عليهم هذا الوصف ونحسبه عند الله كذلك ولا نزكي على الله أحدا القائد المسلم "عقبة بن نافع بن عبد القيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن الظرب بن الحارث بن عامر بن فهر القرشي" أحد التابعين ممن أدركوا عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يلقوه وذلك لحداثة عمره وقتها إذ جاء مولده في أقرب الروايات للمنطق قبل الهجرة النبوية بعام واحد ونسبه قرشي يلتقي بالجد العاشر للنبي صلى الله عليه وسلم فما بعده...

وتجمعه صلة قرابة بعمرو بن العاص داهية العرب قيل أخوه من الأم وقيل ابن خالته وقيل ابن أخته..وعلى الرغم من القربى في النسب لكن شتان بين الرجلين في إدارة الأمور والقدرة على التنبؤ واحتواء الخطر..

تميز عقبة بالشجاعة والقوة والبسالة والعبقرية العسكرية مما جعل الخليفة عمر بن الخطاب يوليه قيادة الجيوش بشكل استثنائي وقد كانت قاصرة على الصحابة..

بزغ نجم عقبة بن نافع وعلا شأنه فشارك في فتح مصر و في فتوحات المغرب العربي ففتح برقة و زويلة والنوبة والواحات وسرت وودان وجرمة وفزان وشارك في فتح سبيطلة..

تولى "عقبة بن نافع" قيادة حامية برقة في عهد "عمر بن الخطاب" واستمر على عهدى الخليفتين "عثمان بن عفان" و"علي بن أبي طالب" ثم تولى إفريقية في عهد الخليفة "معاوية بن أبي سفيان" فاستقر في القيروان (كلمة فارسية تعني محط الجند ومكان السلاح)وبنى مسجده الشهير هناك وكانت منطقة كثيرة الوحوش والسباع فدعا الله أن ينصرفوا عنها فارتحلوا قائلا : "أيتها الحشرات والسباع، نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فارحلوا عنا فإنا نازلون، فمن وجدناه بعدُ قتلناه " وحينما دعا الله وقد أصابه وجيشه العطش الشديد وهو في طريقه إلى مدينة خاوار فانبجس الماء من تحت أقدام فرسه ببركة دعائه وسمي "ماء فرس" ومن هذا اشتهر عنه أنه كان مستجاب الدعاء..

لم يستتب الأمر لعقبة طويلا حيث عزله والي مصر وإفريقيا الجديد "مسلمة بن مخلد الأنصاري" وعين مكانه أحد مواليه من الأنصار ويدعى "أبا المهاجر دينار" على إفريقيا ولم يكن عزل عقبة عن تقصير منه ولكنها

مكافأت سياسية منحها معاوية لكل من عاونوه في فتنته مع الإمام علي رضي الله عنه وبنوه وهي الفتنة التي اعتزلها عقبة ولم يبد فيها موقفا سياسيا أو عسكريا واضحا ..كره عقبة ذلك وقابل خطاب العزل شزرا فأحد الموالي وعبد الأنصار أتى ليحل محله فلم يطق أبو المهاجر هذا منه وأساء معاملته وقيده في الحديد وهنا أولى ملامح شخصية عقبة غير السياسية وعدم تعامله مع الآخر على أساس المساواة بين الناس بصرف النظر عن ماضيهم ولنا في المصطفى صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى ففي الحديث المشهور في صحيح مسلم : "رَأَيْتُ أَبَا ذَرٍّ وَعليه حُلَّةٌ، وعلَى غُلَامِهِ مِثْلُهَا، فَسَأَلْتُهُ عن ذلكَ، قالَ: فَذَكَرَ أنَّهُ سَابَّ رَجُلًا علَى عَهْدِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، فَعَيَّرَهُ بأُمِّهِ، قالَ: فأتَى الرَّجُلُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، فَذَكَرَ ذلكَ له، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: إنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إخْوَانُكُمْ وَخَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فمَن كانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدَيْهِ، فَلْيُطْعِمْهُ ممَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ ممَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ ما يَغْلِبُهُمْ، فإنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فأعِينُوهُمْ عليه.."

ذهب عقبة مغاضبا إلى الخليفة "معاوية بن أبي سفيان" في دمشق معاتبا إياه على إساءة عزله بعد ما قدم من صنيع و على يد "عبد الأنصار" لكن صلة معاوية بمسلمة بن مخلد في زمن الفتنة منعته من اتخاذ أي إجراء لكنه وعد "عقبة" بأن يعيده مرة أخرى لاحقا لحكم إفريقيا وهو مالم يتحقق لوفاة معاوية ..

عبقرية القائد عقبة العسكرية لا تمنع من الاعتراف بتواضع إمكانياته السياسية في بعض المواقف وهو ما يدفعنا إلى الاعتراف أن "أبا المهاجر دينار" كان أفضل من الناحية السياسية من "عقبة" فعلى الرغم من انتصاره العسكري المدوي على البربر في معركة "تلمسان" وظفره بأميرهم الأمازيغي "كسيلة بن لمزم" زعيم قبيلة أوربة والقبض عليه وكسر شوكته ومن ولاه من بقايا البيزنطيين الروم إلا أنه سعى لكسب ود كسيلة وعفا عنه وأطلق سراحه وأفهمه أن الإسلام لم يأت لاستعمار الشعوب المستضعفة ونهب ثرواتها بل أتى لعزتها والارتفاع بقدرها وضمها لراية التوحيد "فَخِيارُكُمْ في الجاهليةِ خِيارُكُمْ في الإسلامِ إذا فَقِهوا "كما علمنا المصطفى صلى الله عليه وسلم فدخل كسيلة في الإسلام وتعلم اللغة العربية وتبعه من البربر الكثير وبدأت علاقات من الود وحسن الجوار بين الطرفين وحتى وإن شكك البعض في حقيقة إسلام "كسيلة" ونواياه إلا أن الاستمرار في هذا السبيل كان كفيلا بتحقيق العديد من المكاسب منها كسر التحالف البربري البيزنطي والاستفادة من قوة البربر كداعم للإسلام أو على الأقل تحييدهم وتحجيم نفوذهم وقد تمكن أبو المهاجر بفضل هذه السياسة من فتح قرطاجنة وجزيرة شريك كما بنى مسجده سيدي غانم، نسبة لأحد الأولياء الصالحين في هذه المنطقة ..ما انتهجه أبو المهاجر في التعامل مع البربر يعتبر من قبيل تأليف القلوب وهي سياسة إسلامية ناجعة تؤتي ثمارها غالبا بأفضل مما يأتي بقوة السلاح واستفحال القتال وقد انتهجها المصطفى صلى الله عليه وسلم في التعامل

مع صناديد قريش وقبائل العرب فقد روى الإمام أحمد عن صفوان بن أمية قال: "أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين، وإنه لأبغض الناس إليّ، فما زال يعطيني حتى صار وإنه لأحب الناس إليّ"، ورواه مسلم والترمذي....

مع تولي "يزيد بن معاوية" أبر بوعد أبيه وعزل "أبا المهاجر دينار" خاصة أن مولاه مسلمة بن مخلد قد توفي في هذه الآونة وأعاد عقبة مرة أخرى لحكم إفريقيا وهنا يتجلى ملمح غير سياسي أيضا من ملامح عقبة إذ لم ينس ثأره القديم فقبض على أبي المهاجر وأساء إليه وكان أولى به العفو والصفح وطي صفحة الماضي وتغليب المصلحة السياسية ووجوب اجتماع الكلمة حول الهدف الأكبر وهو إرساء دعائم دولة الإسلام في إفريقيا كما أساء لحليفه "كسيلة" وقيل أنه كلما سار للفتح حملهما معه مكبلين مما أثار حفيظة قبائل البربر وعزمها على الانتقام هذا بحسب بعض الروايات فيما تذهب روايات أخرى أن كسيلة كان مطلق السراح لكن مهمل الجانب يسخره عقبة في أعمال تحط من قدره مثل الشواء لجنوده بحسب بعض الروايات إذ كان عقبة على منطق سيدنا عمر بن الخطاب من عدم الحاجة إلى تأليف القلوب بعدما تنامت قوة الإسلام وفرضت سطوتها وقد اشتدت قوة الإسلام في المغرب العربي وأن كسر شوكة الجبابرة مثل كسيلة أفضل فعلا وأمضى تأثيرا وهو ما جعله لا يبالي بنصائح أسيره أبي المهاجر بعدم استفزاز كسيلة والبربر أكثر من ذلك ..

كان من عادات "عقبة" أن يطمئن على سلامة جيشه وهي من صفات القائد الشجاع المسؤول ففي القتال يتقدمهم وفي العودة من الغزو يكون في مؤخرتهم وأن يعود جيشه على هيئة أفواج إلى القيروان ويبقى هو على الفوج الأخير فاستغل "كسيلة" ذلك ووجوده مع ثلاثمائة مقاتل فقط وهاجمه بحشود ضخمة من البربر والروم وبمعاونة الكاهنة "ديهيا الوثنية أو اليهودية" التي تولت الحشد ..تصدى عقبة ببسالة هو ومقاتلوه كما صمم الرجل النبيل "أبو المهاجر" أن يقاتل مع "عقبة" وأن يقاسمه مصيره ويلقى الاستشهاد معه في بلاد (تهوذة) من أرض الزاب واستشهد الجميع وأسر نفر قليل..عظم الله أجرهم جميعا قال تعالى في سورة الأحزاب :

(مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣)).

وحتى تؤتي قصتنا ثمارها فماذا لو اجتمعت قوة عقبة العسكرية مع حكمة أبي المهاجر السياسية وسارا معا في حكم إفريقيا وعلى هذا سار من بعدهم ؟!! بالتأكيد كانت ستتغير حوادث التاريخ و نهايات كل الحقب التي كان فيها هذا ممكنا لكن روح الخلاف والتنافس تغلبت وعظمت فساد العدو وتمكن وغلب ..

وحسبنا أيضا في هذا الموضع أن نتحدث عن سجايا عقبة بن نافع ومنها إيمانه الشديد بعظمة الله وعظمة القرآن الكريم ودوره في تهذيب المقاتلين

وأن يعلو على أي أمر آخر وأن الجهاد وطلب الشهادة هما السبيل لرضا الله ورحمته ولو وصل في إعلاء كلمة الله إلى أخر هذا العالم فاتحا..

يقول عقبة :

"أيها الناس إن أشرافكم وخياركم الذين رضي الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه؛ بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان على من كذب بالله إلى يوم القيامة، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة، وأنتم اليوم في دار غربةٍ، وإنما بايعتم رب العالمين، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاه وإعزازاً لدينه، فأبشروا؛ فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى، وربكم عز وجل لا يُسلمكم، فالقوهم بقلوب صادقة، فإن الله عز وجل جعلكم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه، والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين"

ويقول أيضا : "إني قد بعت نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله، ثم قال: "يا بني أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها: إياكم أن تملؤوا صدوركم بالشعر وتتركوا القران، فإن القران دليل على الله عز وجل، وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب ويدلكم على مكارم الأخلاق، ثم انتهوا عما وراءه، وأوصيكم أن لا تُداينوا ولو لبستم العباء، فإن الدّين ذُلٌّ بالنهار وهمٌّ بالليل، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم، وتبقَ لكم الحرمة في الناس ما بقيتم، ولا

تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم دين الله، ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط فهو أسلم لكم، ومن احتاط سلم ونجا فيمن نجا، ثم قال: عليكم سلام الله، وأُراكم لا ترونني بعد يومكم هذا ... ثم قال: اللهم تقبل نفسي في رضاك، واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك ."

وقال أيضا وقد أشرف في رحلة جهاده على المحيط الأطلنطي :" اللهم إني لم أخرج بطرا ولا أشرا وأنك تعلم أني أطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين.. وهو أن تعبد ولايشرك بك.. اللهم إن كنت أعلم أن وراء هذا البحر أرضا لخضته إليها في سبيلك."

ما أعظم أن تكون رحلة المرء طمعا في رضوان الله وإن خالطها بعض الأخطاء البشرية في افتقاد روح العمل الجماعي الخلاق لكن يبقى الإيمان بالله والاجتهاد في طاعته هما العنوانان الأبرز في الرحلة ...

الفصل الثاني

فـــاتحا الأندلـــس

أولهما كان شيخا تعدى السبعين من العمر عركته الحياة حنكة وتجارب وبرغم إعاقته في ساقه وإصابته بالعرج إلا أنه سار معاندا في دروب الحياة بين عسر ويسر وما أقسى عثرات حياته.

ذكر ابن بشكوال أن اسمه "موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد"، وذكر بعض المؤرخين أن لقبه "اللخميّ" ذلك أن أباه كان مولى وقيل من صلب أبناء قبيلة لخم اليمنية الشهيرة وكان على حرس معاوية بن أبي سفيان وقيل على شرطته زمن ولايته على الشام في عهدي عمر وعثمان ثم انتقل للعمل لدى "عبد العزيز بن مروان"، فأعتقه. أما الرواية الأشهر حول أصله هي أنه ينتسب إلى بني بكر بن وائل، وأن أباه "نصير" كان من ضمن أربعين غلاما أسرهم "خالد بن الوليد" في معركة عين التمر عام ١٢ هـ وهي بلدة صغيرة تقع على طرف الصحراء غرب نهر الفرات .فيما ذهب آخرون إلى أنه من "أراشة" من قبيلة "بلي" سبي أبوه من جبل الخليل بالشام في زمن الصديق أبي بكر ، وأن اسم أبيه "نصرا" وصغر إلى "نصير"...

شب "موسى" في كنف الدولة الأموية مما أهله للاضطلاع بمهمة كبيرة وهي إعادة فتح قبرص وتولى إمرتها وكان قد فتحها قبله "معاوية"..الغريب هو أنه أخذ موقفا في عصر الفتن مناهضا الأمويين عبر اشتراكه في معركة "مرج راهط" بين الأمويين والصحابي "الضحاك بن قيس الفهري" منضما لمعسكر الضحاك والذي كان يدعو سرا لعبد الله بن الزبير ولما انتصر الأمويون فر موسى إلى مصر خوفا من بطش "مروان بن الحكم" والراجح عندي هو علاقة أبيه بعبد العزيز بن مروان والي مصر والتي تمخض عنها صداقة جمعت بين عبد العزيز وموسى تلك الصداقة التي أنقذته من غضبة مروان بن الحكم في المرة الأولى ومن بعده غضبة الخليفة عبد الملك بن مروان والتي كادت أن تفتك به. ذلك أن "عبد الملك" ولى أخيه "بشر بن مروان" على الكوفة وضم إليها البصرة فاستعان بموسى على خراجها ولما مات بشر بالبصرة وولي "الحجاج بن يوسف" مكانه اتهم موسى باختلاس أموال الخراج وحجزها لنفسه مستغلا حداثة عمر "بشر" ومنحه خاتمه له عن ثقة تامة للقيام بكافة الأعمال عنه فغضب عليه "عبد الملك" وفرض عليه غرامة كبيرة تحمل عنه نصفها "عبد العزيز بن مروان" وأخذه معه لولايته في مصر...

استعان "عبد العزيز" بموسى بن نصير في إعادة فتح المناطق التي عاد وسيطر عليها البربر عبر ثوراتهم المتلاحقة فنجح في مهمته وعاد محملا بالغنائم والتي وجدها فرصة لإصلاح صورته لدى الخليفة عبد الملك فأرسلها لعبد العزيز من فوره والذي أرسلها للخليفة بدوره ..

على الرغم من ذلك ظلت هذه التهمة تلاحقه بل انتهت حياته على إثرها كما سنرى وهي مسائل مالية شائكة لا يمكن حسمها فمطامع الخلفاء في الغنائم الكبيرة والسعي للثراء يزيد من حجم توقعاتهم علاوة على أطماع بعض الجنود والعمال عليها فبعض هذه الغنائم يسيل لها اللعاب بطبيعة الحال وضعف النفوس وطبائع البشر كلها أمور توضع في الحسبان ..لكن يجدر بنا أن ننظر لوضع موسى بن نصير من زاوية هامة وهو حالته الصحية فالعرج قد يكون علامة على وجود إصابة في الدماغ، الحبل الشوكي، أو الأعصاب الطرفية، أو مشاكل القلب والرئة وكلها أمور تدفع باتجاه الخدر وعدم التوازن والتركيز وبالتالي فقدرة الرجل على تحمل أعباء المسؤوليات المادية علاوة على المسؤوليات الإدارية وقيادة الجيوش بكفاية تامة تبقى محل شك وتساؤل خاصة مع التقدم العمري ؟!

القائد الثاني هو "طارق بن زياد" والذي تختلف المصادر حول أصوله فمنهم من يزعم أنه "فارسي" من همدان ومنهم من ذهب أنه "عربي" من قبائل الصدف في حضرموت باليمن كابن خلكان أو قبيلة بني الليث العربية كابن خلدون ومنهم من قال أنه بربري أو أمازيغي كالمؤرخ والجغرافي أبو عبد الله محمد الإدريسي والمؤرخ المراكشي ابن عذاري وهو القول الأشهر بحكم كونه مولى لموسى بن نصير والي أفريقية والذي أسلم على يديه كثير من البربر وربما كان طارق من بينهم واسمه بحسب ابن عذاري: «طارق بن زياد بن عبد الله بن رفهو بن ورفجوم بن ينزغاسن

بن ولهاص بن يطوفت بن نفزاو»أو «طارق بن زياد بن عبد الله بن ولغو بن ورفجوم بن نبرغاسن بن ولهاص بن يطوفت بن نفزاو» بينما ذكره الإدريسي :"طارق بن عبد الله بن ونامو الزناتي" دون زياد ...

المهم أن القدر يدعو البطلين لفتح الفردوس المفقود ألا وهو "الأندلس" ذلك أن الكونت "يوليان" وبدافع من الرغبة في الانتقام من "رودريك" (أو لذريق) ملك القوط والذي اغتصب ابنته كما اغتصب البلاد كلها من ملكها حسن السيرة غيطشة فقد راسل "موسى بن نصير" وقيل خاطب عامله على طنجة "طارق بن زياد" داعيا المسلمين لغزو الأندلس وتقديم كافة سبل المساعدة على تحقيق ذلك ...

استأذن "موسى بن نصير" الخليفة "الوليد بن عبد الملك" في غزو الأندلس لكن "الوليد" كان على نفس رؤية الخليفة السابق "عمر بن الخطاب" من الخشية على جنوده من أهوال البحر فتردد في الدفع بقوات كبيرة خاصة وأن وعد "يوليان" ربما كان صدقا وربما كان مصيدة لا يؤمن جانبها..لزم موسى بن نصير جانب الخليفة فأرسل سرية صغيرة لجس النبض بقيادة "طريف بن مالك"، فنزلوا جزيرة سميت والتي سميت بجزيرة طريف بعد ذلك وغنم مغانم كبيرة ثم اتبعها بجيش من البربر قوامه سبعة آلاف مقاتل بقيادة "طارق بن زياد" للتوسع في أراضي الأندلس ثم أمده بخمسة آلاف مقاتل آخرين لمواجهة حشود رودريك الهائلة والذي تحرك بنفسه من "طليطلة" عاصمة الأندلس لقيادة المعركة ليتلاقى الجمعان

عند "وادي لكة" حيث انهزم رودريك وانقطع أثره والطريف أن عبد العزيز بن موسى بن نصير تزوج أرملته وقيل ابنته "أجيلونا أو أيْلُهْ" والتي عرفت بأُم عاصم وقيل أنها كانت سببا في تنصره بحسب بعض الروايات !!!

استغل "طارق بن زياد" هذا النصر المؤزر فقرر أن يطرق الحديد وهو ساخن وخشية تجمع فلول القوط مرة أخرى فقسم قواته إلى عدة فرق اتجهت إلى قرطبة و إلبيرة ورية، وتوجه هو وباقي الجيش إلى طليطلة وأحرزت الفرق انتصارات على كافة الأصعدة ..

أرسل "طارق" لموسى بن نصير يعلمه بالنصر فتهلل وأرسل للخليفة الوليد يبشره بهذا الفتح المبين ولكنها الغبطة قد تملكت الشيخ الكبير "موسى بن نصير" في أن يكون له نصيب من فتح كهذا وأن يقترن اسمه بفتح الأندلس العظيم والتقدم الإسلامي بأوروبا فأمر طارق بالتوقف عن الفتوحات حتى يلحق به حيث سلك طريقا غير طريق طارق فاتحا مدن شذونة وقرمونة وإشبيلية وباجة وماردة. كما فتح ابنه عبد العزيز "لبلة" فضلا عن إعادة فتح إشبيلية مرة أخرى بعد تمردها .. سار موسى ووجهته طليطلة، ولاقى طارق في طلبيرة، وانطلقا معا إلى طليطلة كما فتحت سرقسطة...

بعد هذه الانتصارات ارتحلت الدنيا عن البطلين مدبرة من بعد إقبال و إشراق وتبسم حيث تتضارب الروايات حول مصيرهما والذي ارتبط

بالتحول في بلاط الخلافة الأموية من "الوليد" والذي كان على فراش الموت وقت هذه الانتصارات إلى أخيه "سليمان" والذي آلت إليه السلطة بعد ذلك حيث تزعم الروايات أن سليمان طلب منهما البطء في الحضور والمكوث بفلسطين ريثما ينفذ أمر الله ويغدو هو الحاكم وتصبح الغنائم الكبيرة من نصيبه ويقترن الفتح العظيم بحكمه

وقيل في روايات أن خلافا دب بين طارق وموسى في البداية لتسرع الأول في التوغل داخل الأندلس دون إذن الأخير وقد كان المبتغى في البداية شن حرب محدودة وقيل أن خلافا لاحقا شب بينهما حول الغنائم المهولة وتبعا لبعض الروايات أنها كانت كنوزا من الذهب و اليواقيت والجواهر والزبرجد وأن موسى اتهم طارق بسرقة قدم مائدة سليمان الذهبية والمرصعة بالأحجار الكريمة وإخفائها على الرغم من أن طارق هو الذي عثر عليها في مدينة سالم ولو صحت الرواية لكان الأولى أن يخفيها بالكلية لكن يعلل البعض أن إخفائها من جانب طارق كان للتدليل أمام الخليفة على أنه هو صاحب هذا الكشف وليس موسى !!!فيما تزعم روايات أخرى أن "سليمان بن عبد الملك" اتهمهما بالسرقة وأن ماضي موسى بن نصير والأصول الاعجمية لطارق بن زياد جعلت كلا الطرفين متهم وخاسر في آن واحد أمام الخليفة فموسى شيخ كبير لا يطمح من ورائه بشيء وهذه بالضرورة أخر معاركه كما أن الأمويين كانوا يوالون الجنس العربي على الأعجمي لذا فلا ضرورة لطارق أيضا ولا جدوى من الانتصار لكفته فأصبح الرجلان يعانيا الفقر والفاقة في أواخر حياتهما

بعد سعة ويسر بحسب أغلب المصادر .. تبالغ بعض الروايات في تصوير ما حل بموسى وأن الخليفة سليمان وإمعانا في إذلاله أمر بقتل ابنه عبد العزيز وحملت رأسه إليه فعرضها على "موسى" الحبيس قائلا في تشفي : "أتعرف هذا؟"

فقال: "نعم أعرفه صوّامًا قوّامًا، فعليه لعنة الله إن كان الذي قتله خيرًا منه." كما تزعم روايات أن طارق شوهد يتسول أمام المسجد !!لكن ثمة مصادر أخرى رسمت مصيرا أفضل لموسى بن نصير فتدعي أن الخليفة رضى عنه وحج معه وحقق رغبته في الموت بأرض الحجاز وأنه مات بموسم الحج فيما اختار طارق حياة الزهد بجوار جاريته وقيل زوجته "أم حكيم" في دمشق وهي أول امرأة مسلمة عبرت إلى الأندلس ورافقته فتوحاته وأسفاره ...

المصير الغامض للرجلين والتضارب الشديد الذي شابه دفع بعض الكتاب المعاصرين لإنكار حقيقة وجودهما التاريخي من الأساس ومثل هذه الأشكال من الإنكار لحقائق دامغة هي آفة استشرت في وقتنا الحالي لاتهام كل ما هو إسلامي وإغفاله بالكلية كأن لم يكن وتشكيك المسلمين في ثوابتهم التاريخية خاصة المتعلقة بالملهمين من الأبطال والمجاهدين الأبرار طمعا في رضا الغرب والانبطاح لرؤيته...

هذه النوعية من المنكرين إذا دخلت في جدالهم العقيم فهب معهم أن قائدي الغزو الإسلامي من قبيل اختراع مؤرخي العرب إذن أعطني أنت

تصورا بديلا لحقيقة ما حدث عند نهر وادي لكة أو بالإسبانية جواديليتي أو معركة سهل البرباط أو معركة شذونة، أو معركة دي لا جونا دي لا خاندا بالإسبانية أو أي تسمية تريد فقد أجمعت كل المصادر على ذكر الواقعة فهل حدثت دون قائد أو مصادفة مثلا؟!! هنا ينعقد لسان المنكرين ويبهت الذي كفر ...

نعود للبطلين وأيا ما كان مصيرهما سواء حق ما نقلناه حول التنكر لصنيعهما أو أنهما نالا التكريم المناسب لدورهما التاريخي البارز فقد أعد الله لهما في الآخرة ما هو أعظم ألا وهو الجزاء الأوفى بالدرجات العلى من الجنة –ونحسبهم عند الله من الصديقين الشهداء – فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(مثلُ المجاهِدِ في سبيلِ اللهِ – واللهُ أعلمُ بِمَنْ يجاهِدُ في سبيلِهِ –كمثلِ الصائمِ القائمِ الدائمِ ، الذي لا يفْتُرُ منْ صيامٍ ولا صدَقَةٍ ، حتى يَرْجِعَ، وتوكَّلَ اللّهُ تعالى للمجاهِدِ في سبيلِهِ إِنْ توفَّاهُ أنْ يُدْخِلَهُ الجنَّةَ ، أوْ يُرْجِعَهُ سالِمًا مع أجرٍ أوْ غنيمَةٍ)..

ومن أقوال موسى بن نصير والتي تكشف عن تواضعه وكرمه واعترافه بأنه بشر يخطىء ويصيب فضلا عن أهمية وحدة الصف واجتماع الكلمة قوله عند دخوله القيروان : "أنا رجل كأحدكم، مَن رأى مني حسنة فليحمد الله، وليحضّ على مثلها، ومَن رأى مني سيئة فلينكرها، فإني أُخطئ كما تُخطئون، وأُصيب كما تُصيبون،

وقد أمر الأمير –أكرمه الله– لكم بعطاياكم، وتضعيفها ثلاثا، فخذوها هنيئا مريئا، ومَن كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها على ما عزّ وهان، ومع المواساة إن شاء الله" وقوله أيضا "لو أطاعني الناس لفتحت روما".

فيما ينسب التاريخ لطارق هذه المقولة وقيل أنه أصدر أوامره بإحراق السفن الإسلامية :

" أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمرًا ذهبت ريحكم، وتعوَّضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية (يقصد لذريق) فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن، إن سمحتم لأنفسكم بالموت". وسأتوقف هنا عند هذه الخطبة لا لإنكارها كما يحلو للبعض لعدم ورودها في الكتب القديمة المزامنة للفتح أو لأصول طارق البربرية والتي تمنعه من التمتع بهذه القدرات الخطابية البلاغية العالية في الإلقاء بلغة حديثة عليه وهي العربية وهو أمر لا أراه حجة منطقية في إنكار نسبة هذه الكلمات إليه ذلك أن

الإسلام انتشر بين صفوف البربر منذ عهد أسبق بكثير من ميلاد طارق وبالتالي انتشار العربية بين صفوفهم وتلقي بعض الفصاحة عن فحول الشعراء والأدباء العرب بحكم الجوار والدين والتزاوج والتلاحم الثقافي أمر بديهي أما ما أود إنكاره وبقوة فهو مناسبة هذه الكلمات حيث تدعي الروايات أنها جاءت بعد أن أمر طارق بحرق سفن الأسطول الإسلامي ليقطع الطريق أمام المجاهدين ويضعهم بين خيارين لا ثالث لهما إما النصر وإما الشهادة وهي نظرية غير منطقية لا تخطر ببال عاقل فكيف يقدم قائد حتى ولو كان لايملك سوى الحد الأدنى من الخبرة العسكرية على مثل هذا القرار المتهور منفردا ويضع نفسه وقواته لقمة سائغة لعدوه والحرب على مدار التاريخ بين كر وفر ..كما أنه إتلاف عمدي لممتلكات الدولة لا يجوز ولم يكن ليقره عليه أحد من مرافقيه بل كان سيستوجب عزله و محاسبته في التو لذلك أرى أن هذه القصة لا ينبغي أن تتضمنها كتب التاريخ فمضارها أكثر من نفعها إن وجد لها نفع ...

الفصل الثالث

فاتحــون على أبواب فرنســا

مجاهدنا في حلقة اليوم هو "أبو سعيد عبدُ الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغَافِقِيّ العَكِّيّ " ينتمي إلى قبيلة (غافق) وهي من فروع قبيلة (عك) التهامية اليمنية وهو من التابعين المشهود لهم بالعدل والأخلاق وكثرة الجهاد وكان له دورا هاما في رأب الصدع بين قبائل العرب (المضرية واليمنية) والعرب المضرية ويسمون أيضا القيسية والعدنانية وهم عرب الشمال أو العرب المستعربة نسبة للنبي إسماعيل عليه السلام وكانت لغتهم السريانية قبل التحول للعربية أما القبائل اليمنية ويسمون أيضا القحطانية وهم العرب العاربة، ذوو الأصول العربية الأصيلة وأصلهم من اليمن ولغتهم العربية وكانت سياسة الأمويين للأسف تعمل على تغذية الصراع وتأجيج الفتن بين الفريقين مما جعلها أحد أهم معاول سقوط الدولة الأموية في النهاية ..

كان السبب في إثارة هذه الحمية القبلية والنعرات الطائفية في الأندلس هو واليها الهيثم بن عدي الكلابي والذي تعصب للقيسية ضد اليمنية مما حدا بالخليفة "هشام بن عبد الملك" لعزله وتوليه "عبد الرحمن الغافقي" لإدارة هذا الملف الحساس في ولايته الثانية على الأندلس..

نعود لبدايات "عبد الرحمن الغافقي" والذي شارك مع "موسى بن نصير" في فتح الأندلس وقيل أنه رفض الاشتراك في قتل ابنه "عبد العزيز" والي

الأندلس بعد ذلك بإيعاز من الخليفة "سليمان بن عبد الملك" وقيل لتنصره ...

وفي عهد الخليفة "عمر بن عبد العزيز" عين "السمح بن مالك الخولاني" واليًا على الأندلس بأمر مباشر منه على خلاف الشكل السابق من تبعية الأندلس وتعيين ولاتها من قبل ولاة إفريقيا فيما عين "إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر" واليا على إفريقيا..

السؤال لماذا اختار "عمر بن عبد العزيز" "السمح بن مالك الخولاني" واليا للإندلس بشكل مباشر وكذلك "إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر" واليا على إفريقيا ؟

نطمح من هذا السؤال أن نرى كيف كان للأمانة والصدق دور فى اختيار الولاة في عهد الخلافة الراشدة ..ففي أواخر عهد "سليمان بن عبد الملك" قدم خراج أفريقيا إلى مركز الخلافة في دمشق وكانت السنة المتبعة منذ عهد "عمر بن الخطاب" أن يرافق الخراج عشرة من عدول الناس والجند المقيمين بالولاية للشهادة أن هذا المال حلال ولم يؤخذ عسفا أو جورا وأنه الفائض بعد أداء مهمات الجند ومصروفات شئون الولاية فحلف ثمانية وتخلف اثنان هما "السمح" و"إسماعيل" وكان "عمر بن عبد العزيز" من حضور هذا المجلس فأعجبه موقفهما وشجاعتهما فإن لم تستطع قول الحق فلا تصفق للباطل واستخدمهما في الولاية وقد كان "إسماعيل" علاوة على ذلك محدثا وفقيها وتابعيا جليلا ...

ويقال أن "عبد الرحمن" قد قاد الأسطول الإسلامي في اتجاه جنوب أوروبا حيث أثخن في إيطاليا ممهدا لتخليصها من شرور البيزنطيين الطغاة بأمر من "إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر" والي أفريقيا الجديد .

كما شارك "عبد الرحمن" مع "السمح بن مالك" في غزواته والتى وصلت مشارف فرنسا وعند مدينة تولوز

(تولوشة) دارت معركة عظيمة بين جند الإسلام والجيوش الأوروبية التي هبت من كل حدب و صوب لنجدة فرنسا ليصاب السمح بسهم مات على أثره شهيدا مما أثر على نتائج المعركة خاصة مع الفارق العددي الضخم بين الفريقين والذي كان لصالح الروم فقاد عبد الرحمن انسحابا تكتيكيا رائعا باتجاه قاعدة ناربونة الجنوبية ليحافظ على جنده ويعيد ترتيب صفوفهم وتنظيم شئونهم تمهيدا لمعركة جديدة وقد نال محبة واحترام قواته فرشحوه واليا على الأندلس وقائدا لهم حتى قدم "عِنبسة بن سُحيم الكلبي" كوالي عليها من قبل "بشر بن صفوان الكلبي" والي أفريقية وقد آلت مقاليد الحكم للخليفة "يزيد بن عبد الملك(يزيد الثاني)" فعادت الأندلس لسابق عهدها في تبعية تعيين ولاتها من قبل ولاة أفريقيا ثم تعاقب على الأندلس عدد من الولاة حتى آلت في النهاية لعبد الرحمن بتكليف من والي إفريقيا "عبيد الله بن الحبحاب السلولي" في عهد الخليفة الأموي "هشام بن عبد الملك"..

وتزعم بعض المصادر أن "عبد الرحمن" هو باني "قنطرة قرطبة" أو مجددها فيما ينسب البعض الفضل فيها للسمح بن مالك بأمر الخليفة "عمر بن

عبد العزيز" وهي إحدى عجائب الدنيا في زمانها ومن مظاهر التقدم الحضاري الإسلامي في أشكال الانتقال والحركة...عمل "عبد الرحمن" في فترة حكمه على تقوية الجبهة الداخلية للأندلس فردوسنا المفقود خشية أن يعاود الروم الحشد لتهديد أمنها وفي سبيل ذلك قضى على مظاهر تمرد البربر ومنها أشكال الموالاة والتحالف مع أعداء الأندلس والتي قد تعصف بسلامة الدولة كالحلف والمصاهرة بين دوق (أكيتانيا أو أقطانيا) و عثمان بن مينوسة حاكم الولايات الشمالية دون إذنه حيث أرسل عبد الرحمن حملة كبيرة بقيادة ابن زيان لاخضاعه انتهت بمقتل بن مينوسة وأسر زوجته ابنة دوق أكيتانيا (لامبيجيا) والتي أرسلت إلى دمشق وتزوجت من أمير مسلم .

بدأ عبد الرحمن معركة الحسم مع أعداء الأندلس فانطلق بقواته كريح صرصر عاتية بسيوف ماضية صمصامة لا ينطفأ بريقها فاتحا مدن (آرل)على نهر الرون و(بوردو) و(ليون) و (بيزانسون) و(سانس) و(تور) ثم انطلق إلى مدينة (بواتيه) عازما على فتح باريس ..

جمعت أوروبا جيوشا كبيرة بقيادة "شارل مارتل (مارتيل)" لتقع معركة "بلاط الشهداء (تُعرف أيضاً باسم معركة تور أو معركة بواتييه)" والتي انكسر فيها جند الإسلام واستشهد على إثرها عبد الرحمن الغافقي ..

أحد أهم أسباب الهزيمة في هذه المعركة هو حجم الغنائم الجرارة والهائلة التي حصدها المسلمون على طول الطريق والتي شتت أذهانهم عن التركيز في هذه المعركة الفاصلة وكأنهم لم يستفيدوا من درس غزوة أحد وقد قيل

أن "عبد الرحمن" هم بالتخلص من الغنائم أو الأمر بتركها في مواضعها لكنه تراجع وليته فعل ..

كانت الغنائم هي الثغرة التي تسلل منها "شارل مارتل" لتشتيت انتباه الجنود المسلمين حيث هاجمها فتراجع بعض الجنود للدفاع عن الغنائم تاركين أماكنهم مما أحدث ارتباكا شديدا في صفوف المسلمين وحاول عبد الرحمن إعادة تنظيم قواته لكن سهما أودى بحياته وانتهت المعركة بانسحاب المسلمين ..

لا مفر من الاعتراف أن من أعظم خطايا الفتوحات المتأخرة أنها أولت مسألة السبي والغنائم أهمية كبيرة وما كانت غاية الفتوحات في حقيقتها إلا لإعلاء راية التوحيد وجعل كلمة الله العليا وإخراج الناس من عبادة العباد والطواغيت إلى عبادة الله الواحد القهار مع الترغيب في العتق والفداء فيما يتعلق بالأسرى أما مسألة اقتسام الغنائم فقد كانت صورة تنظيمة لوضع قائم في فترات الحروب يتعامل معه الإسلام ظاهرا ولا يقره من حيث الفكرة والمبدأ بل ويعمل على الحد منه فالإسلام دين قام على أكتاف العبيد في مهده سعيا لحقوقهم وليس لضم المزيد منهم لأسواق العبيد علاوة على أن فلسفة السبي وجني الغنائم القصد منها في الأساس هو إفقار العدو واستنزاف موارده وطاقته وهي أمور تأتي في المرتبة الثانية وعلى مدى فترات زمنية متباعدة وطويلة ..كما أن للجند رواتب ثابتة والسعي نحو الغنائم كان لزاما وأن يكون مقننا وفي حدوده الدنيا حتى لا تنصرف همم المجاهدين عن قضيتهم الأساسية إلى مسائل دنيوية

زائلة..هذه الأمور تتجلى بوضوح في القرآن الكريم في قوله تعالى : (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (الأنفال:٦٧) وفي قوله أيضا: (فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ) (محمد:٤) وفي قوله أيضا : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (سورة الأنفال:١).

بقي السؤال :من انهزم ومن انتصر في هذه المعركة ؟!!

بداية لابد وأن نوضح أن الأديان لا تتقاتل ولا تتصارع ولا تتناحر إنما تتكامل ذلك أنها جميعا من نبع واحد ومن هدي واحد ومن مشكاة واحدة ألا وهو المصدر الإلهي والإسلام أتى مكملا ومهيمنا على الديانتين المسيحية واليهودية...وهذا النوع من المعارك هو نتيجة رفض من أصحاب المصالح والغايات الدنيوية بأوروبا للإسلام باعتباره دين ومنهج لبناء دولة في آن واحد واستشعار خطره على مراكزهم لذا فالخاسر هنا هو أوروبا بكل تأكيد والتي لو دخلها الإسلام مبكرا لاستظلت بسياج أخلاقي منيع ولما رأينا الشذوذ والعلاقات المحرمة تصول وتجول دون رادع لها بين مجتمعاتها ولما رأينا ما نراه من صور الفقر

النفسي والتيه المعنوي والحياة بلا هدف والتحول لخدمة المادة وحسب وما ينشب عن ذلك من حالات الانتحار المتعددة..

لا ينبغي أيضا أن نضخم من نتائج هذه المعركة ونسير في ركاب الغرب ونصفها كما يصفها الأوروبيون بالعقاب الإلهي للمسلمين والحفظ الإلهي للمسيحية كديانة لأوروبا وأن شارل مارتل هو بطل المسيحية ومطرقة ضد الإسلام فالمعركة لم تكن بكل هذه الأهمية ولم تحرم المسلمين من معاودة الكرة للتقدم داخل عمق أوروبا إنما انشغال المسلمين بالصراعات الداخلية هو ما جعلهم ينصرفون عن مواصلة هذا الجهاد الواجب من أجل التمدد الروحي والأخلاقي الإسلامي داخل أوروبا والذي كان قادرا على الارتفاع بها من غيابات الظلام والصراعات إلى رحابة الإسلام وتسامحه وفضائله وما لم يصل له المسلمون بالسيف المسلط على أعناق الجبابرة في هذه المعركة وغيرها فقد وصلوا إليه بسحر العقيدة الإسلامية وأفكارها التي تسللت مع الوقت لأوروبا وتحول الملايين منهم إلى مسلمين موحدين ..

الفصل الرابع

فـــاتح فـــارس

إنه الصحابي "سَعْد بن أَبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب القرشي" وهو من بني زهرة أخوال النبي صلى الله عليه وسلم فهو ابن عم السيدة "آمنة بنت وهب" أم النبي صلى الله عليه وسلم وفيه قال مباهيا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : "هذا خالي فليُرِني امرُؤٌ خالَه" وهو ثالث من أسلم وقيل سابع كما أنه من العشر المبشرين بالجنة وكان مستجاب الدعاء ببركة دعوة المصطفى له "اللَّهمَ استجِب لسعدٍ إذا دعاكَ " وقوله "اللَّهُمَّ سَدِّدْ رَمْيَتَهُ، وَأَجِبْ دَعْوَتَهُ" ومعه جاء حديث النبي بشأن مقدار الوصية في حدود الثلث فعَنْ سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَعُودُنِي عَامَ حَجَّةِ الوَدَاعِ، مِنْ وَجَعٍ اشْتَدَّ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي قَدْ بَلَغَ بِي مِنَ الوَجَعِ، وَأَنَا ذُو مَالٍ، وَلاَ يَرِثُنِي إِلاَّ ابْنَةٌ، أَفَأَتَصدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي؟ قَالَ: «لاَ». فَقُلْتُ: بِالشَّطْرِ؟ فَقَالَ: «لاَ». ثُمَّ قَالَ: «الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَبِيرٌ، أَوْ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ الله إِلاَّ أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِي امْرَأَتِكَ». كما أنه أول من رمى بسهم في سبيل الله وحامل إحدى رايات المهاجرين الثلاث يوم فتح مكة وكان الفاروق عمر بن الخطاب قد اختاره واليا للكوفة التي أسسها سعد

ثم عزله درءا للفتنة وكان الفاروق قد أرسل "محمد بن مسلمة" للكوفة للتحقيق في اتهامات لسعد اتضح أن متزعمها "أبو سعدة أسامة بن قتادة" من أهل الكوفة بأن سعدًا لا يقسم بالسوية، ولا يعدل في الرعية، ولا يغزو في السرية حيث يلهيه الصيد عن القتال في سبيل الله ولا يحسن الصلاة فدعا سعد على أسامة قائلا : "اللهم إن كان قالها كذبًا ورياء وسمعة فأعمِ بصره، وكثر عياله، وعرضه لمضلات الفتن؛ إنه ظلمني" فلم يمت الرجل حتى أدركه دعاء سعد .. كان سعد أحد الستة أصحاب الشورى الذين اختارهم عمر بن الخطاب عقب اغتياله في أول انتخابات تعددية في التاريخ الإسلامي لاختيار الخليفة ..

كان سعد على صدقات هوازن حينما استدعاه الخليفة عمر بن الخطاب لقيادة واحدة من المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي إذ وصل للخليفة عبر "المثنى بن حارثة الشيباني" أن "يزدجرد بن شهريار بن برويز بن أنوشروان"، وهو آخر ملوك الدولة الساسانية قد حشد قواته نحو العراق.. تحرك سعد بجيش قوامه ثلاثون ألفاً ضم بضعةٌ وسبعون ممَّن حضروا بدراً، وثلاثمئةٍ وبضعة عشر ممَّن صحبوا النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم بعد بيعة الرِّضوان، وثلاثمئةٍ ممَّن شهدوا فتح مكَّة، وسبعمئةٍ من أبناء الصَّحابة وهو ما يبرز المهارة العالية للخليفة في الحشد والتعبئة العامة على الرغم من أن سيدنا عمر بن الخطاب لم يضطلع بالقيادة في أيا من الغزوات الكبيرة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وإن شارك في معظمها ..

إلا أنه ربما اكتسب من هذه المشاركة دراية أكبر في فن قيادة الحروب مكنته من هذه الإدارة الشاملة والخبيرة.. وصل الجيش إلى "القادسية" وهو المكان الذي اختاره الخليفة عمر بن الخطاب بناء على رسائله المتبادلة عن جغرافيا المكان مع قائده سعد ومن قبله المثنى وصلى سعد بالناس صلاة الظهر وأمر بقراءة سورة الأنفال والتي تشتمل على مفهوم الجهاد وأحكامه تحميسا لقواته..

فيما قاد الفرس "رستم فرّخزاد" في مائة وعشرين ألفًا منهم ..

طلب رستم عبر القنطرة وفدا من المسلمين للمفاوضة ..كان رأي سعد إرسال وفدا عظيما للمفاوضات وبعد مشاورات استقر الرأي بين جماعة المسلمين على أن إرسال فردا واحدا أفضل لإظهار الاستهانة ووضع الفرس في حجمهم الطبيعي وقد عظم شأن المسلمين فأرسل سعد الصحابي "ربعي بن عامر" فدخل على رستم المحاط بأبهة العيش ببساطه الممتد وفرشه الذهبي وذلك بفرسه القصير وبهيئة بسيطة وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه فقال له رستم: "ما جاء بكم؟ "فقال له: "لقد ابتعثنا اللهُ لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، فمن قَبِلَ ذلك منا قبلنا منه، وإن لم يقبل قبلنا منه الجزية، وإن رفض قاتلناه حتى نظفر بالنصر". فقال له رستم: "قد تموتون قبل ذلك". فقال: "وعدنا الله أن الجنة لمن مات منا على ذلك، وأن الظفر لمن بقي منا".

فقال له رستم: "قد سمعت مقالتك ، فهل لك أن تؤجلنا حتى نأخذ الرأي مع قادتنا وأهلنا؟.."

انظر لعظمة الحجة وروعة المنطق وفهم الصحابة الأوائل والتابعين لجوهر رسالة الإسلام وعدالة مهمتها وأن الإسلام جاء ليصارع الطغيان ويقارع الطواغيت وينتصر للتوحيد الخالص لله ولحقوق الضعفاء ويخلق المساواة بين البشر في الحقوق والواجبات ويحقق مكارم الأخلاق وبالتالي فالفتوحات الإسلامية لم تكن أبدا بحثا عن الغنائم وإرهاب الناس في ديارهم لكن الغريب أن نجد من يشكك في صحة مقولة ربعي والتي لا تختلف كثيرا في مقاصدها عن إجابة جعفر بن أبي طالب على النجاشي حينما سأله عن الدين حيث قال : "أيُّها الملِكُ، كنَّا قَومًا على الشِّركِ؛ نَعبُدُ الأوْثانَ، ونأكُلُ المَيْتةَ، ونُسيءُ الجِوارَ، ونَستحِلُّ المَحارمَ والدِّماءَ، فبعَثَ اللهُ إلينا نَبيًّا مِن أنفُسِنا، نَعرِفُ وَفاءَه وصِدقَه وأمانَتَه، فدَعانا إلى أنْ نَعبُدَ اللهَ وَحدَه، ونَصِلَ الرَّحِمَ، ونُحسِنَ الجِوارَ، ونُصلِّيَ، ونَصومَ."

نعود لموضوعنا وقد انتهت المفاوضات بالفشل وحانت ساعة الموجهة وسرعان ما ظهرت التحديات أمام الجيش الإسلامي فقد أصيب قائد الجيش سعد بعرق النسا ودمامل في فخذيه وإليتيه فكان لا يستطيع القعود ولا الركوب وينام على وجهه وفي صدره وسادة ويقود المعركة من فوق قصر غير حصين بناه بين الصفين فاضطلع بالقيادة "خالد بن عرفطة" وهي من المظاهر التنظيمية في الجيش الإسلامي

ووضع كل التوقعات في الحسبان لغلق الباب أمام أي مفاجآت أو ثغرات قدر الإمكان..كان التحدي الآخر هو اعتماد الفرس على الفيلة البالغ عددهم ثلاثين فيلا في مقدمة الجيش ونفور وذعر خيول المسلمين منها في تكتيك أشبه بالمدرعات اليوم وكان لابد من التصرف معها وهنا أوكل سعد لقائد ميسرة القلب "عاصم بن عمرو التميمي" أمر التخلص من الفيلة وبدوره وجه رماة السهام من تميم بالتخلص منها عبر قطع حبال التوابيت التي كانت على ظهرها وقتل من بهذه التوابيت من سياس الفيلة الذين يوجهونها ونجحت المهمة وأصبحت الأفيال في حالة هياج تقاتل جيش الفرس وتوقع به الهرج والمرج وقد فقدت الموجهين لها وقيل أن الرماة المسلمين كانوا يعمدون لمهاجمة أكبرها وأضخمها فيفقؤوا عيونها، ويقطعوا مشافرها، فتذعر وتفر وتهرب وانتهت المعركة بمقتل رستم قائد الفرس على يد "هلال بن علقمة التميمي" والذي صاح "قتلت رستم ورب الكعبة"وفي رواية أخرى أن الذي قتل رستم هو "أبو ثور عمرو بن معديكرب الزبيدي المذحجي"..

من ألطف المواقف في هذه الموقعة هي غيرة المرأة المسلمة على زوجها المجاهد وحثها له على القتال والفداء ونيل الأجر ذلك أن "سلمى بنت خصفة التيمية" وقد كانت زوجة للمثنى بن حارثة الشيباني وكان شيخا كبيرا (قد أتينا على ذكره) وتوفي عنها المثنى قبل هذه الموقعة تاركا وصيته لسعد في قتال الفرس بألا يقاتلهم في عقر دارهم بل على حدودها " على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى حدٍ من أرض العجم، فإن يُظهر

الله المسلمين عليهم لهم ما ورائهم، وإن تكن الأخرى: فأووا إلى فئة، ثم يكون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يَرُدّ الله الكرّة عليهم" فتزوجها سعد فانزعجت من بقاء زوجها الجديد سعد بينما جيشه يقاتل وقد كان مريضا كما تقدم فراحت تستحثه وتباهي ببطولات زوجها السابق قائلة: «وامثنياه! ولا مثنى لي اليوم»، فغضب سعد ولطم وجهها، فقالت: «أغيرةً وجبنًا» وفي رواية أخرى أنه قال " والله لا يعذرني اليوم أحد إذا أنت لم تعذريني وأنت ترين ما بي والناس أحق ألا يعذروني"..

ومن الأمور الطريفة والمثيرة للجدل هى اشتراك الصحابي والشاعر "أبو محجن الثقفي" في الغزوة وكان مدمنا للخمر وقيل أن "عمر بن الخطاب" نفاه إلى البحر بعد أن أقام عليه حد الخمر مرارا أو لأنه أحب امرأة وتغزل فيها اسمها "شموس" وأن زوجها شكاه للخليفة وأنه فر والتحق بسعد في القادسية وقيل أن "سعد" حبسه في القادسية لمعارضته تأمير "خالد بن عرفطة" على الجيش ضمن مجموعة من المعارضين وقيل لشربه الخمر ومما يروى أنه لشدة تعلقه بالجهاد طلب من سلمى زوجة سعد أن تفك قيده وتحل وثاقه ليحارب العدو ثم يعود ففعلت ثم وثب على فرس سعد المسماة "الْبَلْقَاءُ" حاملا رمحه وحمل على العدو بشدة حتى هزمهم ومن شدة بلائه في المعركة تصوره الناس ملكا فلما انتهى القتال عاد للقيد برا بعهده لامرأة سعد فأخبرت امرأة سعد زوجها بما كان منه فَقَالَ سَعْدٌ: " لَا وَاللَّهِ لَا أَضْرِبُ بَعْدَ الْيَوْمِ رَجُلًا ، أَبْلَى اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى يَدَيْهِ مَا أَبْلَاهُمْ " وخلى سبيله...

ومن الأمور الطريفة الأخرى أن قتل مؤذن المسلمين في المعركة فجرى تنافس بين المسلمين على من يخلفه حتى كادوا من شدة الحرص على ثواب هذا العمل الصالح أن يقتتلوا فأقرع بينهم سعد فخرج سهم أحدهم فأذن ...

أطلق على معركة القادسية عدة مسميات منها معركة "الفيلة" كما تسمت أيامها بأرماث لليوم الأول أي اختلاط الجيشين وأغواث لليوم الثاني من الغوث أي المدد وعماس لليوم الثالث من الشدة ويوم القادسية أو الهرير لليوم الرابع من تصاعد حدة القتال.

ومن أعظم نتائج هذه المعركة أنها حسمت مصير العراق وتبعيته لدولة الإسلام واستأصلت النفوذ الفارسي

وأخضعته للإمبراطورية الإسلامية المتنامية كما أعقبتها سلسلة من الفتوحات انتهت بسقوط فارس نهائيا ودخول الفرس في الإسلام فدخل سعد والمسلمين المدائن والقصر الأبيض وإيوان كسرى والذي فر هاربا وتحققت نبوءة المصطفى صلى الله عليه وسلم بأن "عُصبةُ المُسلِمينَ يَفتَتِحونَ البَيتَ الأبيَضَ، بَيتَ كِسْرى وآلِ كِسْرى" وفي ذلك درسا مهما للأجيال المتعاقبة خطه أجدادنا المسلمون بسواعدهم ورسموه بدمائهم ولكننا لم نفهم الدرس ولم نعي فحواه فحينما فتح أجدادنا هذه البلدان كالعراق وفارس بعد عناء ومشقة وفتوحات عديدة إنما قصدوا وحدة الأرض المسلمة وأن تصل كلمة التوحيد إلى أخر الدنيا وأن يكون المؤمن

للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا كما علمنا المصطفى صلى الله عليه وسلم لا أن ينقلب المسلمون إلى أعداء يضرب بعضهم أعناق بعض وتسيطر عليهم هواجس طائفية ومذهبية غادر أصحابها الدنيا ومضت أزمنتها ومع ذلك بقيت كعناوين للتشرذم والفرقة حتى اليوم وسببا للإخفاق والضعف والتردي في الجسد المسلم الواهن...وحسبنا قول النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وقد أنصت الناس :

(لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ).

وللأسف الشديد مر هذا القول بأسماع المسلمين مرور الكرام ولم يعيروه انتباها طوال عهود الدول الإسلامية قاطبة حتى خفضت راية التوحيد وتهاوت..

كما أن الرسالة السامية للإسلام جاءت لتعزز من مفهوم الأمة الواحدة والجسد الواحد وتكريس مفهوم السلام والتعارف والتقارب بين الشعوب والقبائل وهو ما لم يعد له أثرا في عالمنا العربي والإسلامي قال تعالى في سورة الحجرات :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣))

لكن الغريب أننا نجد أحيانا أصداء الرغبة في التقارب تنطلق من العالم الغربي باتجاه الشرق ولو عبر نسيج مطرز مابين الحقيقة والأسطورة

والشاهد بطلنا في حلقة اليوم ولكن من الصين حيث تزعم الروايات الصينية الأقرب للشعبية أن وفدا أتى لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم طالبا زيارته للصين فاعتذر وأرسل معهم أربعة من الصحابة..

منهم سعد بن أبي وقاص أطلق عليهم في بعض هذه الأدبيات لقب "الحكماء الأربعة" وأطلق على سعد لقب "وقاص بابا" أو "بابا الأول" وأن سعد رفض وضع الامبراطور الصيني لصورة للنبي في قصره إتباعا للنهي النبوي عن وضع الصور والتماثيل فامتثل الامبراطور

وبنى مسجدا في مدينة الزهور "قوانغتشو أو كوانزو " سماه " هواي تشينغ " أي "الشوق إلى النبي" أو مسجد "وقاص" كما بني للحكيم المرحوم وقاص ضريحا لتخليد ذكراه كأول داعية إسلامي بالصين ..

لقد تبلورت واحدة من صور اعتزال الفتنة وترك الصراع في ملامح سيرة بطل حلقتنا أيضا وذلك إبان فتنة معاوية بن أبي سفيان وعلي بن أبي طالب والتي انقسم حولها الصحابة وتقاتلوا فاعتزل سعد بن أبي وقاص هذا الصراع الدامي على السلطة وعاش بالفلاة يرعى الغنم ويعبد الله في دعة وهدوء فلما استتب الأمر لمعاوية عاتبه قائلا : "مالك لم تقاتل معنا..؟!!

فأجابه:" إني مررت بريح مظلمة, فقلت: أخ .. أخ.. ، واتخذت من راحلتي حتى انجلت عني.."فقال معاوية: "ليس في كتاب الله أخ.. أخ.. ولكن قال الله تعالى:

(وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ).

وأنت لم تكن مع الباغية على العادلة, ولا مع العادلة على الباغية".فرد سعد في حسم وشجاعة قائلا: " ما كنت لأقاتل رجلا قال له رسول الله: أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِن مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِي.".

ومن نصائح سعد الغالية التي تعكس قناعته أنه قال لابنه مصعب: "يا بني: إذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة، فإنها مال لا ينفد؛ وإياك والطمع فإنه فقر حاضر؛ وعليك باليأس، فإنك لم تيأس من شيء قطُّ إلا أغناك الله عنه."

الفصل الخامس

قاهر المغول

هو السلطان المملوكي المظفر "سيف الدين قطز" ويقال أن أصوله ترجع إلى الخوارزميين الذين حكموا آسيا الوسطى وأفغانستان وإيران وأن اسمه الحقيقي هو "محمود بن ممدود" وأن خاله هو السلطان "جلال الدين خوارزم شاه" الذي دخل في حروب مع المغول ..كانت بداية معرفة إقليم خوارزم بالإسلام مع فتوحات القائد المسلم "قتيبة بن مسلم الباهلي" في عهد الخليفة الأموي "الوليد بن عبد الملك" وقد انتقلت تبعيته بين الدول الإسلامية المختلفة حتى آل للدولة السلجوقية وفي عهد السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه الثاني ابن علاء الدين تكش شهدت الدولة استقلالا واسعا واتساعا كبيرا على حساب جيرانها فغزا جميع أراضي بلاد فارس وجميع الأراضي من نهر سيحون إلى الخليج العربي وطلب من الخليفة الناصر في بغداد الاعتراف به وبملكه فلما رفض عزم على غزوه لكن هبوب عاصفة ثلجية عند عبوره لجبال زاغروس علاوة على مهاجمة قواته من الجبال عصفت بأحلامه مع موت الكثير من قواته.. كان هذا التوسع وهذا التهور في ذات الوقت دون دراسة للعواقب والتبعات هما العنوانان الفاصلان والمتلازمان لبداية التشييد واتساع بؤرة التداعي لدولة السلطان محمد خوارزم إذ أصبحت أملاكه متاخمة للمغول وحاكمهم

هو "تيموجين" أو "تيموغين" إمبراطور المغول ومؤسس الدولة والمعروف بجنكيز خان وهو لقب يعني قاهر العالم أو ملك ملوك العالم وهم قوم وثنيون أشداء لا يعرفون سوى الحرب وحياتهم فظة وشديدة البدائية والعنف والشراسة...كانت حادثة احتجاز مجموعة من التجار المغول أرسلهم "جنكيز خان" لإقامة علاقات تجارية مع الدولة الخوارزمية في مدينة "أترار" التابعة للدولة الخوارزمية على يد حاكم المدينة "ينال خان" بتهمة التجسس لحساب المغول هي الشرارة التي أهلكت الأخضر واليابس وحطمت الدولة الخوارزمية عن آخرها حيث رفض السلطان جهود الإفراج عنهم وقيل التحقيق في قتلهم حيث قيل أن حاكم المدينة قتلهم في روايات أخرى كما قابل جهود خصمه "جنكيز خان" في التأسيس لعلاقات دبلوماسية والشراكة التجارية بشيء من الاستخفاف وسوء الظن غير مبال بقوة جنكيز خان الذي فتح الصين في ذلك التوقيت وقد أبدى جنكيز خان حسن النوايا بمخاطبته السلطان ب "أنت عندي مثل أعز أولادي" و"ولدنا الحبيب إلى قلوبنا" وقيل أن السلطان أقدم على قتل البعثة التجارية المغولية والتي كانت تضم مسلمين أيضا بقرار منه خشية أن تكون تمهيدا لتبعية بلاده للمغول وكراهيته أن يكون تابعا لكافر مما أشعل غضب جنكيز خان فأرسل جيشا كبيرا إلى بخارى وسمرقند زلزل الأرض من تحت عرش السلطان الذي استوعب خطأه وجريرته بعد فوات الأوان ففر من المواجهة وكان ضعيف الهمة حتى استقر بجزيرة "آبسكون" في وسط بحر قزوين مع نفر قليل من رفاقه

منهم ابنه جلال الدين فيما سقطت والدته "تركان خاتون" والتي كانت المتصرفة في كثير من شؤون البلاد بشكل غير مسؤول في قبضة جنكيز خان لتتجرع الهوان والذل ..

كانت وصية السلطان "محمد خوارزم شاه" لابنه "جلال الدين" قبل وفاته باستعادة ملكه من جديد وقد عهد إليه بولاية العهد وسط غيرة إخوته الآخرين مما ولد صراعا بينهم بعد ذلك ...وقد بلغت شدة فقر السلطان محمد في أواخر أيامه والذي مات بداء ذات الجنب (من أمراض الجهاز التنفسي ويصيب غلاف الرئة مسببا حمى وضيق في التنفس وألما في الجنب) أنهم لم يجدوا مايكفنوه فيه فكفنوه في فراشه الذي ينام عليه..

حاول ابنه السلطان "جلال الدين منكبرتي" تنفيذ الوصية لكنه بدلا من أن يستعيد مملكة أبيه من الصفر حط بها إلى ما تحت الصفر إذ حارب على جميع الجبهات في نفس الوقت واصطنع أعداء من العدم وأراق دماء مسلمين أبرياء منصرفا عن عدوه الأساسي فخسر كل شيء ولو امتثل لقوله تعالي في سورة الأنفال :(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) لكفته..ولكن من يتعلم ومن يتأسى؟!!

بدأ "جلال الدين" عهده بأن اتخذ من "غزنة" قاعدة لجهاده فاستبشر الناس به خيرا وألحق بالمغول هزيمة ساحقة عند "بروان" ويقال في "بلق"

قرب غزنة إلا أن تخلي بعض القادة عنه وأبرزهم "سيف الدين بغراق" والطمع في الغنائم أضعف جيشه فحاول الفرار عبر نهر السند مع من تبقى من جيشه لكنه عجز عن تدبير السفن اللازمة لنقلهم لخشية بحارة هذه السفن من انتقام المغول فتلاقى الجيشان مرة أخرى ولكن شجاعة السلطان وبسالته لم تكن لتصمد أمام التفوق العددي للمغول ففر السلطان مع جنوده بأن قذفوا أنفسهم على ارتفاع كبير ليسبحوا للجهة الأخرى من النهر ..

بلغ سخط "جنكيز خان" أوجه أمام هذه الشجاعة النادرة فخنق ابن السلطان جلال الدين والذي كان عمره ثمان سنوات بين يديه وقد وقع أسيرا فيما أغرق السلطان نسائه في النهر خشية أن يقعن في قبضة المغول..

وصل السلطان وصحبه إلى الهند حيث تمكن من تجميع صفوفه وحشد قواته مرة أخرى واشتدت شوكته حتى أصبح غير مرحب به بين حكام الهند فعاد للجهاد مرة أخرى ضد المغول فضم ملك عراق العجم وفارس وكرمان وأذربيجان إلى سلطانه ثم حاول ضم العراق الواقع تحت سيادة الخلافة العباسية لكنه آثر السلامة في النهاية واختار الصلح كما ضم تبريز لملكه بعد زواجه بملكتها وفتح تفليس ...

كما دخل في حروب مع الأيوبيين وسلاجقة الروم والذين دخلوا في تحالف ضده فانهزمت قواته...طبعا طوال هذه الفتوحات والحروب والتي

كان السلطان منشغلا بها عن المغول أعدائه الأساسيين وفاتحا جبهات كثيرة مع أعداء كثر بعضهم من بني جلدته ومستحلا لدماء ممالك مسلمة

فقد كان أيضا المغول في شغل شاغل عنه مع وفاة كبيرهم (جنكيز خان) واختيار خليفة له وما أن نصبوا (أوقطاي خان) خلفًا له حتى انطلق طوفان المغول نحو السلطان جلال الدين مجددا ليخسر أملاكه إلى غير رجعة ولم تجد استغاثاته أى صدى لدى حواضر العالم الإسلامي فلم يهب أحد لعونه ونجدته جَزَاءً وِفَاقًا وأصبح هائما وحده لا يعرف إلى أين يذهب ؟!!حتى قادته قدماه إلى قرية بالقرب من جبال كردستان فقتل بيد رجل كردي انتقاما لمقتل شقيق له بيد جند السلطان وقيل أغار عليه مجموعة من اللصوص وقتلوه وقيل أنه عاش متنكرا حتى نسي الناس أمره..

كان من ضمن الأسرى من عائلة خوارزم شاه بطل موقعتنا "محمود" وأطلق عليه المغول "قطز" أي "الكلب الشرس" لكثرة مقاومته لآسريه وتم بيعه في سوق الرقيق بدمشق ثم بمصر ودخل في خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب من أواخر ملوك الدولة الأيوبية ثم أصبح الساعد الأيمن لسيده "عز الدين أيبك" قائد المماليك المعزية وحاكم مصر بعد ذلك حيث ظل في طاعته ونائبا عنه ثم نائبا عن ابنه الملك المنصور "نور الدين علي بن أيبك" ...

يرى البعض أن قصة انتساب قطز للدولة الخوارزمية محض أوهام روج لها قطز كجزء من الدعاية السياسية له وأذاعها بين الناس عبر قوله لأحد المنجمين « انا اكسرهم (أي المغول) وآخذ بثأر خالي خوارزم شاه" أو ربما كانت وليدة تراث السير الشعبية الذي يختلق ويضيف ما يشاء إلى أحداث التاريخ لتلميع أصحاب هذه السير وأن الحقيقة أنه من مغول القبجاق ولهذا الرأي وجاهته إذا علمنا أن بيبرس وهو أيضا من القبجاق قد ألحقت به نفس القصة في التراث الشعبي وأنه "محمود بيبرس الدمشقى العجمي الخوارزمي"!!!

لا ينبغي إن أردنا أن نرسم صورة صحيحة ومتكاملة عن قطز أن نختزل ملامح هذه الصورة في فترة سلطنته التي لا تتجاوز العام بل لابد وأن نضعه في سياق فترة حكم سيده الطويلة أيضا والتي تضمنت أحداث هامة كان فيها قطز شريكا أساسيا وضالعا في صنعها ومنها مثلا قتل منافس أيبك على السلطة "فارس الدين أقطاي" غيلة وهو زعيم المماليك البحرية ومالاقاه مماليكه بعد ذلك ومنهم "ركن الدين بيبرس البندقداري" من نفي وتشريد فيما أصبح لمماليك أيبك وهم "المعزية" ومنهم قطز الكلمة والنفوذ والسلطان فى مصر كما أننا لا نستطيع أن نغفل دور قطز في اعتقال "شجرة الدر" بعد قتل زوجها أيبك وتمكين زوجة أيبك الأولى منها لتضرب بالقباقيب حتى الموت وتلقى عارية من أسوار القلعة وقد كان يمكنه التصدي لذلك أو على الأقل منعه ومحاكمتها بشكل لائق بملكة سابقة...ومن هذه النظرة الموضوعية نقطع

الطريق أمام شطط البعض في وصف قطز بأنه من المجددين في الدين ممن قصدهم النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف : "إنَّ اللَّهَ يبعَثُ لِهذِه الأمَّةِ على رأسِ كلِّ مائةِ سَنةٍ من يجدِّدُ لَها دينَها."

نأتي لمعركة "عين جالوت" حيث وصلت رسل المغول إلى مصر حاملة رسالة من "هولاكو" يقول فيها "من ملك الملوك شرقًا وغربًا القان الأعظم ..يعلم الملك المظفر قطز، وسائر أمراء دولته .. أنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه. فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم وأسلموا لنا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء، فتندموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرقّ لمن اشتكى، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب، فأي أرض تأويكم، وأي طريق تنجيكم، وأي بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعائكم علينا لايُسمع فإنكم أكلتم الحرام، ولا تعفون عند كلام، وخنتم العهود والأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان، فأبشروا بالمذلة والهوان ..

(فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (الأحقاف: ٢٠))..(وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ(الشعراء : ٢٢٧))"

فرد قطز : "قل: اللهم على كل شيء قدير والحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبى الأمى، على كتاب ورد فجرا عن الحضرة الخاقانية، والسدة السلطانية نصر الله أسدّها، وجعل الصحيح مقبولا عندها، وبان أنكم مخلوقون من سخطه، مسلطون على من حلّ عليه غضبه، ولا ترقون لشاكٍ، ولا ترحمون عبرة باكٍ، وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم، وذلك من أكبر عيوبكم، فهذه صفات الشياطين، لا صفات السلاطين، كفى بهذه الشهادة لكم واعظا، وبما وصفتم به أنفسكم ناهيا وآمرا، قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون، ففى كل كتاب لعنتم، وبكل قبيح وصفتم، وعلى لسان كل رسول ذكرتم، وعندنا خبركم من حيث خلقتم وأنتم الكفرة كما زعمتم ألا لعنة الله على الكافرين.."

المتتبع لرسائل هولاكو للسلاطين المسلمين يجدها مجتمعة على استخدام الأسلوب البلاغي والترهيب السجعي والاستشهاد القرآني فيها في موضعه أحيانا وفي غير معناه أيضا في أحيان أخرى على الرغم من أن المغول لم يكونوا أهل كتاب ولم تكن الدعاية الدينية على أجندتهم العسكرية لكن الواضح أنهم انتدبوا لهذه المهمة عرب موالين لهم يعرفون كيف يخاطبون الشعوب الإسلامية مستخدمين الدعاية الدينية ودغدغة

المشاعر ومستحثين حمية الخلاص من الظلم لدى المستضعفين من هذه الشعوب أما رد قطز فاتشكك في صحته لكثرة السجال المنطقي فيه ومقارعة الحجج ببعضها والذي حتما لن يفهمه المغول ولو ترجم إليهم بلغتهم مئات المرات !!

علاوة على سؤال مشروع كيف أرسل قطز هذا الرد ؟!! وقد قتل رسل المغول كما سنرى فيما بعد !!! أم كان ردا ارتجاليا وهو أمر أيضا غير ممكن ..

قرر قطز أن يستعد للمعركة بتأمين الجبهة الداخلية فعزل الملك المنصور "نور الدين علي بن أيبك" (قيل تنصر بعد ذلك) وكان طفلا وهو نائبا عنه واعتلى مقعد السلطنة وحتى يطمئن الأمراء المماليك حتى لا ينقلبوا عليه قال لهم : "إني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر ولا يأتي ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم أقيموا في السلطة من شئتم" كما أصدر عفوا عاما وشاملا عن المماليك البحرية الذين فروا إلى الشام بعد مقتل زعيمهم "فارس الدين أقطاي" ومنهم "بيبرس"..

كانت تحديات الإعداد لهذه المعركة المصيرية من حول قطز كبيرة فالأمراء المماليك لا يريدون الحرب لقد خلدوا للراحة واختاروا الدعة وأخبار المغول الذين لم يهزموا في معركة قط جعلتهم في يقين حول نتيجة المعركة سلفا وخاطرهم يميل للمهادنة والاستسلام فاجتمع بهم "قطز" وخاطبهم

بنبرة حادة قائلا : "يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين" فأجاب البعض دعوته للجهاد وتردد آخرون فأردف قائلا : "أنا ألقى التتار بنفسي" فلما رأى الأمراء المتخاذلون منه هذا الإقدام مضوا معه على كره ..

وحتى يقطع الطريق أمام المتخاذلين وكل من يهاب المعركة بأن المواجهة باتت لا رجعة فيها ولا سبيل للتفاوض بشأنها أو المراجعة وحتى يلهب حماس الناس في الشوارع في نفس الوقت فقد أمر بضرب أعناق رسل التتار الأربعة بعد تشاور مع "بيبرس" وهي مسألة غير أخلاقية إذ لابد وأن يبقى السفراء في مهامهم الدبلوماسية في معزل عن وتيرة الخلافات وشهوة الانتقام وساحات المعارك والدعايات السياسية المخضبة بالدماء ولكنها في النهاية تقاليد سادت هذه العصور في الحشد الجماهيري وشاعت في إظهار التحدي بين الممالك قاطبة وعلقت الرؤوس على امتداد مصر في الريدانية وباب النصر وباب زويلة وسوق الخيل حتى تكون على مرأى من الناس جميعا..

من التحديات الأخرى كان تدبير المال اللازم للمعركة فتم حجب ومنع الكثير من مظاهر الرفاهية عن الأمراء المماليك ومصادرة بعض أموالهم ونفائسهم وبيعها لاستيفاء الشق الشرعي بفتوى الشيخ "العز بن عبد

السلام" من أنه: "إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم، بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء، وبشرط أن يؤخذ كل ما لدى السلطان والأمراء من أموال وذهب وجواهر وحُليّ، ويقتصر الجند على سلاحهم ومركوبهم، ويتساووا والعامة".. ثم كان التحول بعدها لأخذ الأموال من العامة ففرضت ضرائب عقارية وأخذ ثلث الزكاة مقدما كما كان الاضطرار لفرض ضريبة على الأنفس وقدرها دينار على كل شخص فتجمع لديه ستمائة ألف دينار مصرية كما صادر أموال الأيوبيين الفارين من الشام عقابا لهم.

امتازت إدارة "عين جالوت" بالحكمة والاستفادة بكل ما هو ممكن ومتاح والأخذ بالأسباب إلى أبعد مدى ففتح باب التطوع أمام الناس فانضم للواء الجيش المصري الإسلامي بعض القبائل العربية بقيادة أمير العرب "شرف الدين عيسى بن مهني بن مانع" وكذلك عناصر الجيش الشامي الفارين على اختلاف تركيبتهم العرقية من أكراد وتركمان وقيمرية وشهرزورية كما استفاد قطز من المعلومات التي كانت ترسلها بعض العناصر العربية المندسة في جيش المغول والتي كانت تظهر التحالف معهم وفي قلوبهم وفاءا مع أبناء جلدتهم مثل "صارم الدين أزبك بن عبدالله الأشرفي"..

زود "صارم" "قطز" عبر رسوله بثلاثة أمور مهمة الأولى أن هولاكو قد غادر ومعه عددا كبيرا من جيشه وأن ميمنة التتار أقوى من الميسرة وأن على الجيش الإسلامي أن يستغل هذه الثغرة ويقوى من الميسرة وأن الأشرف الأيوبي أمير حمص منخرط في جيش التتار على كره وسينهزم بين يدي المسلمين ..فأخذ قطز المعلومات ووضعها في الاعتبار مع شيء من التوجس لعدم معرفته بصارم الدين من قبل وخشيته من أن تكون حيلة مغولية خبيثة..

كما نجح قطز في تحييد جبهة الصليبيين في الشام لتكون بمفازاة عن المعركة المقبلة وقد حافظ الصليبيون على هذا العهد لعدة اعتبارات سياسية ودينية ومنها رفض بابا الفاتيكان للتحالف مع المغول علاوة على خشية الصليبين من نوايا المغول

بعد استيلائهم على "صيدا" أحد معاقلهم فساروا على قاعدة "عدو نعرفه" وهم المسلمون خير من "عدو نجهله ونجهل مطامعه" وقد يكون أعظم خطرا وأشد وطأة ألا وهم المغول..

كما اتفق بيبرس وقطز على الالتجاء للحيلة والايقاع بالعدو بين فكي كماشة في ساحة القتال حيث هاجمت مقدمة الجيش الإسلامي بقيادة "بيبرس" جموع المغول ثم تظاهرت بالانسحاب ليحاول المغول تتبع فلول الجيش الإسلامي فيما كان "قطز" قد أعد هجوما مضادا يعاونه الخيالة الفرسان فوق الوادي وتم تطويق جيش المغول فهجم "كتبغا" بعنف

شديد لكسر الحصار مما أدى إلى خلل في جناح ميسرة المسلمين واضطراب في جموعهم فيما ثبتت الميمنة والقلب وهنا ألقى "قطز" بخوذته إلى الأرض وكان جواده قد قتل فترجل وقد خشى أن تدور الدائرة على جيشه وصاح بأعلى صوته "وا إسلاماه" وحمل بنفسه ومن معه على المغول بشىء لا يخلو من التهور الشديد فاضطربت صفوفهم وألقى الله في قلوبهم الرعب فيما عاد للمسلمين حماسهم وكانت هذه الصيحة مفتاح النصر وقتل "كتبغا " بيد "جمال الدين آقوش الشمسي", وهو من مماليك الناصر يوسف الأيوبي أمير دمشق كما حرر المسلمون الشام ايضا..

الطريف في موقعة عين جالوت أنه استخدم فيها ولأول مرة سلاح المدفعية والبارود وكان مسحوق أو معجون البارود يتكون من نترات البوتاس والفحم والكبريت إلا أن صراعا بين المؤرخين قد نشب فالبعض يرى أن الأسبقية في ذلك كانت للمغول وليس للمماليك ...

ولأن المسلمون في هذه الموقعة قد سعوا وأخذوا بالأسباب جميعها كما رأينا فقد أعانهم الله بأسباب إلهية وجنود لم يروها ولم يطلعوا على ثقلها في قلب الموازين ونقلها من حال إلى حال {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ} مما جعل انتصارهم حاسم ونهائي فقد رحل هولاكو بشكل مفاجىء مع عدد كبير من جيشه إلى تبريز (فارس) قبل المعركة كما ذكرنا وذلك بعد أن واتته الأخبار بموت شقيقه "منكو (مانغو)خان" خاقان التتار تاركا

"كتبغا النسطوري (أو كيتبوقا نويَن وهو قائد تركي من قبيلة النايمان التركية المسيحية على المذهب النسطوري والقاطنة بمنغوليا)" على قيادة جيش المغول بالشام وأوكل له مهمة غزو مصر فيما جهز هولاكو نفسه لمتاعب حسم خلافة منصب الخاقان الحيوي والأكثر أهمية كما رتب جيشه ليكون على أهبة الاستعداد لمواجهة السرطان الإسلامي المتنامي في جسد أسرته الوثنية والذي يمثله ابن عمه "بركة خان بن جوتشي (أو جوجي) بن جنكيز خان" والمعتنق للإسلام والطامع في التحكم بمنصب الخاقان ..

كان جنكيز خان قبل وفاته قد قسم امبراطوريته بين أبنائه الأربعة : جوتشي (جوكال) وجغطاي (جاغطاي) وتولي (تولاي) وأوقطاي ...لكن تشاء الأقدار أن يموت "جوتشي" الأبن الأكبر في حياة أبيه وكان أبناء جوتشي ومنهم "بيرق خان" أو بركة خان بعد إسلامه هم الأكثر تعاطفا مع الإسلام ودارت روايات عدة حول السبب في ذلك منها أن "جوتشي" قد تزوج الأميرة "رسالة بنت علاء الدين خوارزم شاه"، أخت السلطان الخوارزمي "جلال الدين منكبرتي"، (تحدثنا عنه) فكان لها تأثير كبير في أبنائه،ومنهم بيرق خان وقيل أن ذلك لتأثر بيرق خان بالتجار المسلمين ببخارى وقيل لتأثره بالصوفية وخاصة العالم الصوفي والإمام المحدث الزاهد "سيف الدين الباخرزي" وقيل الفقيه "نجم الدين مختار الزَّاهِدي الغَزْميني" وقد كتب له الرسالة الناصرية في النبوة والمعجزات.

تولى "بركة خان" زعامة القبيلة الذهبية الروسية أو مغول القبجاق (دولة مغول الشمال والتي منحها جنكيز خان لابنه جوتشي) وأرسل للخليفة المستعصم ببغداد بيعته باعتباره زعيما سياسيا وروحيا يمثل الإسلام بالعالم أجمع كما شيد مدينة سراي (سراتوف حاليا) كعاصمة للمغول المسلمين وحاضنة لعدد كبير من المساجد وقبلة للعلماء والفقهاء ..

لعب "بركة خان" دورا كبيرا في عرقلة مطامع ابن عمه "هولاكو بن تولي خان" تجاه العالم الإسلامي وأخر هجوم هولاكو على بغداد حاضرتها حينما وسط أخيه "باتو" والذي كان زعيم القبيلة الذهبية قبله ولم يعتنق الإسلام لوقف جماح هولاكو فامتثل هولاكو على مضض لأمر "باتو" حتى توفي الأخير فدكت قوات هولاكو بغداد ..
وكان هولاكو قد أعد كل شيء مبكرا لمعركة بغداد فوطد علاقته بمؤيد الدين بن العلقمي وزير الخليفة العباسي الشاب المستعصم ووعده بحكم البلاد بعد التخلص من الخليفة العباسي وقد كان ابن العلقمي يحلم بانتقال الخلافة من بني العباس إلى العلويين فقبل وهذه من صور محن التفكك والطائفية في عالمنا الإسلامي ..استغل ابن العلقمي حسن نية الخليفة وضعف جانبه وقلة حيلته وثقته به فأقنعه أن يستسلم حقنا لدماء المسلمين وأن هولاكو جاء طالبا تزويج ابنته بابن الخليفة الأمير أبي بكر كبادرة على حسن النوايا والإبقاء عليه في منصب الخلافة كصهر وحليف كما فعل بصاحب الروم في سلطنته..انطلى الأمر على الخليفة ووجدها ابن العلقمي فرصة للقضاء على كل رجال الدولة والعلماء

والفقهاء والأمراء دفعة واحدة فدعاهم جميعا لخيمة الصلح التي تضم الخليفة وهولاكو حيث ضربت أعناقهم جميعا وبقي الخليفة فاحتاروا في أمره وقد خشي هولاكو من ضرب عنقه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرر بدلا من ذلك وضعه في بساط وضربه وركله حتى يعترف أين يخبيء كنوزه ثم الاستمرار في رفسه حتى الموت ويقال أن ابن العلقمي ذاق جزاء خيانته للخليفة كبيرا وفي روايات أخرى أن هولاكو استعمله كحاكم من قبل السلطة التترية الجديدة وهو الأرجح عندي ...

شق على بركة خان ما حل بالخليفة وبعاصمة الخلافة من دمار وأضمر في نفسه الانتقام حين تحين الفرصة لذلك ..

من بغداد انطلقت جحافل المغول تستولي على حلب ودمشق وأنطاكية وما نال المغول ما نالوا إلا بضعف المسلمين وإيثارهم الحياة وكراهيتهم للموت إلى الحد أن أحد سلاطين السلاجقة الروم ويدعى "عز الدين كيكاوس الثاني" كان قد تصدت بعض قواته للمغول دون علمه فلما علم أرسل معتذرا لهولاكو بطريقة مبتكرة حيث رسم صورته على فردتي حذاء وأهداهما له ليتشرف بوضع قدميه على صورته !!!

صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال : (يُوشِكُ أن تَدَاعَى عليكم الأممُ من كلِّ أُفُقٍ ، كما تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِها ، قيل : يا رسولَ اللهِ ! فمِن قِلَّةٍ يَوْمَئِذٍ ؟ قال لا ، ولكنكم غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيْلِ ، يُجْعَلُ الْوَهَنُ في قلوبِكم ، ويُنْزَعُ الرُّعْبُ من قلوبِ عَدُوِّكم ؛ لِحُبِّكُمُ الدنيا وكَرَاهِيَتِكُم الموتَ)..

بوفاة "مانغو خان" واشتعال الصراع على خلافته بين إخوته "أرتق بوكا" و"قوبلاي خان".. أخذ "بركة" جانب "أرتق" فيما أخذ "هولاكو" جانب "قوبلاوي" و أصبح "بركة" و"هولاكو" وجها لوجه في صراع دموي ضروس على وراثة الحكم ..

هذا الصراع كان منحة إلهية فقد شغل "هولاكو" عن محاولة استعادة الشام مرة أخرى والانتقام لما حدث في "عين جالوت" حيث أوقع الصراع بجيشه العديد من الهزائم وقتل ابنه فأصيب بالصرع ومات كمدا ...

وقد توطدت العلاقة بين "بركة خان" و"بيبرس" بعد مقتل قطز وبلغ اعتزازهما بهذه الصداقة والتحالف حد زواج "بيبرس" من ابنة بركة خان وتسمية ابنه منها بالسعيد بركة وربما كان لأصول بيبرس وقطز كمغول قبجاق أو قفجاق مسلمين أثر في ذلك أيضا ..

ولكن يبقى السؤال الذي لابد وأن يراودنا كيف قتل قطز ولماذا ؟!

والإجابة حاضرة ولا تحتاج لذرة تفكير ولا مناص من الاعتراف بها فالمماليك هم المماليك حتى في أدق الظروف أشتاتا غير متجانسة من البشر لا يعرفون الطاعة لحاكم ولا الاستقرار السياسي ولا الولاء لقضية دينية شاملة فقد قتل "قطز" بعد انتصاره بخمسين يوما عند "الصالحية" وهو في طريق عودته من دمشق إلى القاهرة حيث استغل القتلة انعزاله عن الجند وانطلاقه خلف أرنب لصيده وتقدم إليه "بيبرس" يطلب

شفاعته في أمر فشفعه فأمسك يده ليقبلها وكانت هذه إشارة متفق عليها بينه وبين باقي القتلة من الأمراء الذين انطلقوا على "قطز" بالسيوف وألقوه عن فرسه ورشقوه بالنشاب حتى تأكدوا من مصرعه ..تتفق أغلب الروايات على مسؤولية "بيبرس" عن عملية الاغتيال ولكن تختلف الروايات بشأن الدوافع فبعضها يرى أن النية كانت مبيتة للانتقام من قطز لدوره في قتل "أقطاي" كما أسلفنا وقيل لأن "قطز" وعد "بيبرس" بإمارة حلب وأخلف وعده وقيل لأن "قطز" تملكته الخيلاء وخاطب الأمراء بشكل من الاستخفاف والتنمر مما حرك في نفوسهم الرغبة في الانتقام وقيل لأن "بيبرس" كان يرى نفسه صاحب هذا الانتصار والأولى بأن يضاف إلى اسمه ولا يشاركه فيه أحد وأنه الأولى بالسلطنة أيضا فقد حارب المغول ومن قبلهم الصليبين في حملة لويس التاسع ملك فرنسا على دمياط والمنصورة ..

يغالي البعض في رفع "قطز" إلى درجة المجددين في الدين (تحدثنا آنفا) وإلى نسبة العدل إليه ولخليفته "بيبرس" استنادا إلى ما رواه العلماء نقلا عن ابن تيمية من أن النصر مرهون بعدل الدولة حيث يقول ابن تيمية: (إنَّ الله يقيم الدَّولة العادلة، وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدَّولة الظَّالمة، وإن كانت مسلمة).

طبعا العبارة ظاهرة الخطأ والبطلان فالله ينصر دينه أولا وأخيرا وعباده المؤمنين ولو بعد حين وما كان الله لينصر كافرا أبدا وإنما هي ابتلاءات

لصلابة المؤمنين وحثا لهم في سبيل الإيمان القوي مع الأخذ بالأسباب الكونية فإن عادوا لجوهر الإسلام غلبوا عدوهم وانتصروا لدين الله وإن ضعفوا وتهاونوا غلبهم عدوهم لبعض الوقت استغلالا لضعفهم وابتعادهم عن دينهم الإسلامي الدين الحق ولو كره الكافرون وليس أبدا تأييدا من الله لعدل الكافرين!!! وإلا لما كان هناك فرق بين مؤمن وكافر..

وأكبر مثال واقعي وحي على خطأ هذه المقولة انتصارات المماليك والدولة المملوكية أبعد ما تكون عن إقامة العدل في كل شئونها ومع ذلك كان تأييد الله لدينه ولعباده منهم المؤمنين ولو كانوا قلة وليس الأمر مرهون بعدل حاكم أو دولة وإلا لما انتصر المماليك والعثمانيين في أي موقعة إطلاقا ..

قد يحلو لبعض المؤرخين المعاصرين الانتصار لهذه العبارة ولو على حساب التاريخ فيزيفون ويحذفون ويضيفون ويتجاهلون ويهملون من أجل إسباغ صفات على بعض السلاطين المماليك والعثمانيين الذين احرزوا انتصارات كبيرة ليست من شيم هؤلاء السلاطين وصفاتهم والذين كانت تحكمهم جميعهم الوصولية والانتهازية والصراعات الدموية والفرقة والاغتيالات ومبدأ الحكم لمن غلب واغتصاب أموال الناس بالباطل وشاعت في عصورهم أبشع الجرائم الإنسانية وأشد صور الانحطاط الفكري والتدني الأخلاقي وشاع الجهل وسادت الخرافات وكانت موطن ما عرف بشيوخ السلاطين ...

الفصل السادس

فاتحـــــا القــــدس

أما الفاتح الأول لها من الناحية العسكرية والميدانية فهو الصحابي الجليل "أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجرَّاح بن هلال بن أهيب بن ضبَّة بن الحارث بن فهر بن مالك بن النَّضر"، أمُّه "أميمة بنت غنم بن عبد العُزَّى" ويلتقي مع أمِّه في النَّسَب عند الحارث بن فهر، وقد اشتهر بكنيته (أبو عبيدة) وجاءت مقترنة باسم جده (الجراح) .هو أحد العشرة المبشرين بالجنة وقد قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم : "لِكلِّ أُمَّةٍ أمينٌ ، وأمينُ أمتي أبو عبيدَةُ بنُ الجرَّاحِ" فحمل لقب "أمين الأمة" وهو من المبادرين لاعتناق الإسلام والدعوة في مهدها وقبل أن يتحول النبي للدعوة السرية المنظمة بدار الأرقم بن أبي الأرقم بمكة...شهد أبو عبيدة مع النبي صلى الله عليه وسلم غزوة بدر وقيل أنه قتل أباه الكافر فيها ويقال أن قوله تعالى في سورة المجادلة : (لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢))

قد نزل في هذه الواقعة فيما تنفي روايات أخرى صحتها وأن والد أبي عبيدة مات قبل الإسلام ..

كما شهد أبو عبيدة مع النبي غزوة أحد ودافع عن النبي فيها بشجاعة حتى انقلعت ثنيتاه من أصولها فصار أثرم أي أهتم ..

بوفاة المصطفى صلى الله عليه وسلم وانقسام المسلمين في سقيفة بني ساعدة على خلافته بين المهاجرين والأنصار كان صوته مؤيدا لصوت عمر بن الخطاب في انتخاب أبي بكر الصديق رضي الله عنه كمرشح توافقي لما له من فضل صحبة النبي صلى الله عليه وسلم في الهجرة وجهاده في سبيل الدعوة الإسلامية منذ نشأتها بنفسه وماله وحتى نكون منصفين فلو أخذ باقتراح الانصار في اقتسام السلطة المتمثلة في منصب الخلافة "منا أمير ومنكم أمير" سواء أكان ذلك متزامنا أو بالتعاقب لتغيرت عجلة التاريخ ولما اندثرت دولة الخلافة الراشدة بهذه السرعة بعد "علي بن أبي طالب" ولما أصبح الأنصار لقمة سائغة أمام الأمويين ويزيد بن معاوية و الذي أجهز عليهم بالكامل في مجزرة مروعة عرفت بوقعة "الحرة" وأعتقد أن سيدنا عمر كان أكثر شجاعة حينما أقر بأن هذه البيعة كانت "فلتة" (أي مفاجئة وعلى غير إجماع تام) " فمَن بَايَعَ رَجُلًا علَى غيرِ مَشُورَةٍ مِنَ المُسْلِمِينَ، فلا يُتَابَعُ هو ولَا الذي بَايَعَهُ؛ تَغِرَّةً أنْ يُقْتَلَا." وهذا ليس طعنا منه في خلافة أبي بكر فهو الأجدر والأولى ولكن إعادة قراءة للمشهد حتى لا يتكرر مع طامع أو غير ذي كفاءة..

لهذا لابد وأن نستوعب دروس التاريخ وأن نفهم أن الشكل الجماعي في الحكم وتبادل وتداول السلطة بشكل سلمي على أساس الكفاءة والدراية والعلم والعدل دون اعتبار لمبدأ الأغلبية والأقلية وارساء دعائم الشورى كل هذه الأمور كانت كفيلة بحقن دماء كثيرة على مدار تاريخنا الطويل....وفي خلافة "عمر بن الخطاب" أمر بتولية "أبي عبيدة" كأمير للجيوش وعزل "خالد بن الوليد" وذلك إما أثناء حصار دمشق بحسب بعض الروايات أو أثناء معركة اليرموك نظرا لما شاع عن الصحابي الجليل خالد بن الوليد من الأخذ بالمبادرة دون انتظار الأوامر والمشورة و العنف الزائد والحمية نحو إعمال السيف كخيار أوحد في معالجة بعض الأمور وافتنان الناس بهذا السيف ...وكانت وجهة نظر "عمر بن الخطاب" في ضرورة تحلي القائد بشيء من المرونة في التفاوض ومهارة إدارة المعارك بحنكة وسياسة وإيثار السلم والمعاهدات والذي نعرفه حديثا بالوضع المربح للجميع وجعل السيف الخيار الأخير والعمل في إطار جماعي والانضباط وانتظار الأوامر لذا كان رهان "عمر" على "أبي عبيدة بن الجراح" في إقرار هذه القواعد كما جعل "خالد بن الوليد" تحت إمرته حتى لا يحرم المسلمين من مجاهد بمهاراته القتالية وقد استقبل الصحابيان الجليلان هذه الخطوة بروح من المودة والتآخي فخاطب خالد جنوده قائلًا: «بُعِثَ إِلَيْكُمْ أَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقُوْلُ: "لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ"». فقال أبو عُبيدة:

«سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقُوْلُ: "خَالِدٌ سِيْفٌ مِن سُيُوفِ الله، نِعْمَ فَتَى العَشِيْرَةِ"».

أما الفاتح الثاني من الناحية الإشرافية والتشريفية فهو الصحابي الجليل والخليفة الثاني للمسلمين "أبو حفص، عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي". ويلتقي نسبه مع المصطفى صلى الله عليه وسلم عند كعب .

كما أن أمه "حنتمة بنت هشام المخزوميه" هي أخت أبي جهل. لقب عمر بالفاروق لحدسه المتفرد في التفرقة والتمييز بين الحق والباطل وأنه ينتصر للحق دوما ولا يهاب الباطل ولا يخاف في الله لومة لائم وقد شهد النبي صلى الله عليه وسلم له في حديثه: "إنَّ اللهَ جعَلَ الحَقَّ على لِسانِ عُمَرَ وقَلبِه." وأن الشيطان يهابه في حديثه الشريف : «إِيهاً يا بن الخطَّاب! والَّذي نفسي بيده! ما لقيك الشَّيطان سالكاً فجّاًقطُّ إِلا سلك فجّاً غير فجِّك» وفي لفظ آخر : «إِنَّ الشيطان لا يلقى عمر منذ أسلم إِلا فرَّ لوجهه».

وينسب إليه بعض الرواة حادثة وأد لابنته في الجاهلية وهي حادثة بعيدة عن المنطق تماما ويفندها عقلا وجود ابنته "حفصة" على قيد الحياة والتي ولدت قبل البعثة بخمس سنين وتزوجت النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك..

كان عمر في البداية في جانب المشركين ثم أسلم ببركة دعاء المصطفى صلى الله عليه وسلم "اللَّهُمَّ أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام"وذلك في ذي الحجة من السنة السادسة من النبوة وجاء متزامنا مع إسلام "حمزة بن عبد المطلب" عم الرسول بفاصل ثلاث أيام وكان ترتيبه الأربعين في الإسلام وتتعدد الروايات حول قصة إسلامه فقيل أنه كان في طريقه لقتل النبي وسمع بإسلام أخته وزوجها "سعيد بن زيد" ، فاقتحم بيتهما وبعد ضربه لهما رق قلبه مع الوضوء وقراءة قوله تعالى :

(طه* مَآ أَنَزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى* إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى*)

وفي رواية أنه كان في طريقه لشرب الخمر فلم يجد صاحب الحانة فذهب للكعبة للطواف فوجد النبي فسمع منه سورة الحاقة وأسلم .

الحقيقة أن مراجعة تاريخ غزوات عمر مع النبي صلى الله عليه وسلم لا يوحي بدور بارز لسيدنا عمر كمقاتل من العيار الثقيل على الرغم من أنه شارك في أغلب غزوات النبي صلى الله عليه وسلم فنجده يقتل خاله (ابن عم والدته) "العاص بن هشام" في غزوة بدر وفي غزوة أحد يرد على أبي سفيان الذي راح يتثبت من قتل كبار الصحابة فقال له :

"يا عدو الله، إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقي الله لك ما يسوءك" ويرأس سريّةٍ صغيرة من ثلاثين رجلا بأمر رسول الله إلى "هوازن" ولم يحدث

بها أي قتال ويتبرع بنصف ماله في غزوة تبوك لكن محدودية الدور القتالي لا تمنع من القول بأن المهارات القيادية والإدارية والعبقرية السياسية والقدرة على قراءة الواقع واستشراف المستقبل وكذلك القدرة على الحسم كانت من فضائل وشمائل سيدنا عمر ومميزاته لذلك أحسن صنعا سيدنا أبوبكر في اختياره ليكون ساعده الأيمن ومستشاره فترة خلافته لكن توليته القضاء لم يكن أمرا موفقا بعض الشيء وقد اختار سيدنا عمر رضي الله عنه اعتزال القضاء في عهد أبي بكر مبكرا والحجة التي يسوقها بعض الرواة دفعا للحرج أنه لم يكن للمسلمين من حاجة في هذا الزمان إلى قاض وهو أمر مستحيل التخيل والقبول والمتتبع لأحكام سيدنا عمر بن الخطاب يرى أن الرجل كان صادقا مع ذاته عارفا بقدراته ومهاراته ومتمكنا من استخدامها فقال "كُلُّ أَحَدٍ أَفْقَهُ مِنْ عُمَرَ " وكان يدرك أن اجتهاداته في مسائل القضاء قد توقعه في بعض الأخطاء الفقهية وقد عرف عنه شدة خشيته من الله وقد حدث أن أخطأ في بعض الأحكام كما حدث في أمره برجم حامل متهمة بالزنا والحامل لا ترجم حتى تضع وليدها والأمر برجم مجنونة متهمة بالزنا والجنون يرفع القلم وأخرى كاد يوقع بها حد الزنا لأنها ولدت لستة أشهر مع أن أقل مدة للحمل هي ستة أشهر وقد أظهر سيدنا علي بن أبي طالب براعة في كثير من هذه القضايا الفقهية وإنقاذ سيدنا عمر من هذه الأخطاء فكان الأقدر على ممارسة مهنة القاضي وقد قال سيدنا عمر في ذلك " لولا عليٌّ لهلك عمر" وكذلك قال في حق معاذ بن جبل "لولا معاذ لهلك

عمر" وهذا ليس عيبا ولا يقلل من قدر صحابي ويرفع من قدر صحابي آخر فقد فهم هذا الجيل الذهبي للإسلام معاني المشاركة والعمل الجماعي والتكامل فيه والتواضع فيما بينهم وثقافة الاعتراف بالخطأ والتعلم من الأخطاء دون مواربة أو إخفاء بعيدا عن المثاليات المفرطة والتعاظم والاستعلاء على الاعتذار وفوق كل هذا عرفوا أدب العلاقات الإنسانية فحفظوا أقدار بعضهم البعض (وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)(البقرة :٢٣٧) ...

وفي فترة خلافته كان سيدنا عمر بحق ملهما لعلم الإدارة والتنظيم ونبراسا للطامحين في إدارة الدول

وتنظيم شئونها بشكل علمي وعملي ممنهج فقد اضطلع بثورة إدارية غير مسبوقة للتأسيس لدولة إسلامية قوية ومتماسكة وامتلك من الحكمة الفطرية والحنكة السياسية وتطبيق منهج الشورى مع الصحابة ما مكنه من ذلك فهو أول وضع الدواوين وأول من اتخذ بيتا لأموال المسلمين وضربت في عهده العملة وأول من أقر مبدأ محاسبة الولاة والمسؤولين قبل إلتحاقهم بالخدمة وبعدها وأول من التفت لأهمية تمهيد الطرق والعناية بالدواب من أجل حركة التجارة والنقل وقال قولته المشهورة " لو أن جملا أو قال شاة أو قال حملا ، هلك بشط الفرات ، لخشيت أن يسألني الله عنه ".وهو أول من سن العسس الليلي واضطلع به بنفسه للاطمئنان على أحوال الرعية واستقرار الأمن بالشوارع وهو أول من

أنشأ ديوان الجند وسن التجنيد الإجباري للشباب والقادرين وحدد فترة غياب الجند عن زوجاتهم بأربعة أشهر كما وضع التقويم الهجري للدولة الإسلامية وغيرها من الأمور الهامة ..

نأتي لموضوعنا الأساسي...بدأت ارهاصات رحلة الفتح الإسلامي للشام ومن ثم القدس موضوع حلقتنا مع بشارة المصطفى صلى الله عليه وسلم للمسلمين بفتح الشام أثناء حفره للخندق فعن البراء بن عازب أنَّهُ قال: «لما كان حين أمرنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بحَفْرِ الخَنْدَقِ عَرَضَتْ لنا في بعضِ الخَنْدَقِ صخرةٌ لا نأخذُ فيها المَعَاوِلَ، فاشتَكَيْنا ذلك إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم، فجاء فأخذ المِعْوَلَ فقال : بسمِ اللهِ، فضرب ضربةً فكسر ثُلُثَها،

وقال : اللهُ أكبرُ أُعْطِيتُ مَفاتيحَ الشامِ، واللهِ إني لَأُبْصِرُ قصورَها الحُمْرَ الساعةَ، ثم ضرب الثانيةَ فقطع الثلُثَ الآخَرَ فقال : اللهُ أكبرُ، أُعْطِيتُ مفاتيحَ فارسٍ، واللهِ إني لَأُبْصِرُ قصرَ المدائنِ أبيضَ، ثم ضرب الثالثةَ وقال : بسمِ اللهِ، فقطع بَقِيَّةَ الحَجَرِ فقال : اللهُ أكبرُ أُعْطِيتُ مَفاتيحَ اليَمَنِ، واللهِ إني لَأُبْصِرُ أبوابَ صنعاءَ من مكاني هذا الساعةَ».

وكان أول صدام بين الدولة الإسلامية الناشئة والدولة الرومانية الحاكمة للشام في عهد النبي صلى الله عليه وسلم حينما قام "شرحبيل ابن عمرو الغساني" بقتل "الحارث بن عمير الأزدي" رسول النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملك بصرى وحامل رسالته بالدعوة للإسلام عند "مؤتة" لتندلع

بعدها غزوة مؤتة أول غزوة للمسلمين خارج الجزيرة العربية وأكبرها لكن انتهت المعركة بمقتل القادة المسلمين الثلاثة "زيد بن حارثة" و"جعفر بن أبي طالب" و"عبد الله بن رواحة" وانسحاب تكتيكي رائع قاده "خالد بن الوليد" للحيلولة دون مزيد من الخسائر لكن الفتوحات الحقيقية بالشام كانت في عهد "أبي بكر الصديق" بعد حروب الردة حيث استطاع بسط النفوذ الإسلامي وسط القبائل العربية ومن ثم تأمين جبهته الداخلية وأصبحت الأمور مواتية نحو الغزو الخارجي ...وبهزيمة الجيش البيزنطي في معركة اليرموك تحت وقع جحافل الجيش الإسلامي في عهد سيدنا عمر بن الخطاب هرب "هرقل" من سوريا

وأصبحت الإمبراطورية الرومانية في مهب الريح ومستعمراتها في الشام تستسلم دون قتال فقد أنهكتها الحرب الطويلة وفترات الحصار وأدركت أن لا طائل من المقاومة..

بعد أن من الله على المسلمين بفتح دمشق كان أمام "أبي عبيدة" أمير الجيوش خيارين إما الاتجاه إلى قيسارية أو إلى بيت المقدس وكان القرار للخليفة عمر والذي أمر بفتح بيت المقدس أولا ففرح المسلمون وكانوا في اشتياق للصلاة بالمسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين وثاني مسجد بني في الإسلام بعد المسجد الحرام ومسرى النبي صلى الله عليه وسلم ومعراجه في رحلته الروحانية العظيمة إلى السماوات العلا في صحبة جبريل عليه السلام ..أرسل أبو عبيدة إلى أهل إيلياء

قاطني القدس يدعوهم إلى الإسلام أو بذل الجزية أو الحرب ..طال حصار القدس لمدة أربعة أشهر وقد طوقتها سبعة جيوش بقيادة يزيد بن أبي سفيان وخالد بن الوليد وشُرَحبيل بن حسَنة ومعاوية بن أبي سفيان علاوة على قوات عمرو بن العاص فقد كان بيت المقدس من أواخر معاقل الروم بالشام ...

اشترط أسقف القدس للصلح وتسليم المدينة الدينية المقدسة أن يحضر الخليفة عمر بن الخطاب لتسلم مفاتيحها...

كان سيدنا "عمر بن الخطاب" مثالا حيا للتواضع والزهد ضاربا أروع الأمثلة في ذلك لأمته فكان قدومه من المدينة المنورة لبيت المقدس بهيئة بسيطة بصحبة غلام له على بعير واحد، ويتناوبون على ركوبه، فلما وصلا القدس كان دور الغلام في ركوب البعير لكن الغلام أراد أن يقدم عمر عليه، فرفض وأصر عمر أن يدخل القدس ماشيًا يجر البعير وقد طال الطين والبلل ثيابه ..خشي أبو عبيدة بن الجراح من وقع هذه الهيئة على هيبته لدى أهل القدس وهو القائد الأعلى لكل هذه الجيوش الجرارة الزاحفة إليهم والناس ينتظرونه وقد اعتادوا رؤية الطغاة من ملوكهم في أبهي صورة وحولهم مظاهر الثراء والأبهة والعظمة فقال له : "يا أمير المؤمنين، لو ألقيت عنك هذا الصوف، ولبست البياض من الثياب، لكان أهيبَ لك في قلوب هؤلاء الكفار" فضربه عمر في صدره مؤنبًا،

قائلا: (أما لو قالها غيرك يا أبا عبيدة، لقد كنا قومًا أذلاء فأعزنا الله بالإسلام، وكنا ضعافًا فقوانا الله).

ولما بلغ عمر الجبل كبّر، وكبر الجند المسلمين لرؤيته فسمي "جبل المكبر" كما رحب به أسقف بيت المقدس "صفرونيوس" بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية في القدس والذي تلقى عهد الأمان من عمر فيما تسلم منه عمر مفاتيحها..

ودخل "عمر" رضي الله عنه بيت المقدس من الباب الذي دخل منه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء، وصَلَّى فيه مستقبلًا القبلة.

لم يتمالك الأسقف نفسه من التأثر بهذه الأحداث المتلاحقة أمام عينيه والتي يتقرر فيها مصير المدينة المقدسة فأجهش بالبكاء فواساه عمر قائلا: "لا تحزن، هَوِّنْ عليك، فالدنيا دواليك، يومٌ لك ويومٌ عليك"،

فقال الأسقف موضحا أن مبعث بكاءه هو ما رآه من مظاهر عدل المسلمين وهو الأساس الذي تقوم عليه الدول الطامحة للبقاء أبد الدهر فقال: "أظننتني على ضياع الملك بكيت، والله ما لهذا بكيت، وإنما بكيتُ لما أيقنت أن دولتكم على الدهر باقية، ترق ولا تنقطع، فدولةُ الظلم ساعة، ودولةُ العدلِ إلى قيام الساعة، وكنت حسبتها دولة فاتحين تمر ثم تنقرض مع السنين"

وياليتنا نفهم ونتدبر ونتعلم مما خبره أجدادنا وشرحوه لنا على واقع ما صنعوه من أحداث بسجيتهم النقية فسادوا العالم وملكوا الدنيا وأظهرهم الله على أعدائهم..

بحث عمر عن المسجد الأقصى وقيل سأل الأسقف عنه وقيل سأل "كعب الأحبار" وكان يهوديا وأسلم أو تظاهر بالإسلام فوجده قد ساءت حالته وقد جعله النصارى مكب نفايات(مزبلة) نكاية في اليهود الذين كانوا يعظمونه فشمر عمر عن ساعديه، وراح ينظف ويكنس المسجد، والمسلمون معه يدا بيد ثم وضع عباءته وصلى عليها ركعتين في محراب داود تحية المسجد ولما جاء وقت الفجر أمر الصحابي الجليل "بلال بن رباح" بأن يؤذن في المسجد الأقصى، لأول مرة منذ عهد طويل فكان هذا هو الفتح الثاني الذي يؤذن فيه "بلال" رضي الله عنه بعد فتح مكة وصلى عمر بالناس في الركعة الأولى بسورة (ص) وسجد فيها سجدة داود وفي الركعة الثانية بسورة الإسراء مما يقدح في الروايات التي تزعم أن عمر قد تجاهل الصلاة في المسجد الأقصى..

ثم أمر عمر بتجديد المسجد وإعادة بنائه وتوسعة شاملة له ليستوعب عددا أكبر من المصلين ..كما قام عمر بوضع حجر الأساس للصخرة التي صعد منها المصطفى ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج وجعل قبلة المسجد الأقصى أمام الصخرة وليس خلفها حتى لا تكون الصخرة حائلا بينه وبين القبلة في البيت الحرام مخالفا بذلك نصيحة كعب الأحبار

قائلا : "يا ابن أم كعب ضارعت اليهود " وقد كان كعب يريد أن يجعل قبلة المسلمين واليهود واحدة إلى الصخرة !!!

ولأن المنهزمون ذاتيا في جيلنا كثر فهناك من يستخدم هذه القصة كدلالة على أنه لم يكن هناك مسجد أقصى من الأساس وأنه بدعة سياسية أموية روج لها لصرف الناس عن الحج لمكة زمن الصراع مع عبد الله بن الزبير وجعل الحج وجهته للمسجد الأقصى !!!وهو أمر مستحيل عقلا ويخدم إسرائيل أكثر مما يخدم التاريخ إن اعتبرنا أن ما يقومون به يوضع بعباءة التاريخ من الأساس..

وقد لبى عمر دعوة الأسقف لزيارة كنيسة القيامة كدليل على التسامح الإسلامي وروح الإخاء التي ينبغي أن تسود الدولة الإسلامية القوية ولما أدركته الصلاة وكان لازال فيها، فالتفت إلى الأسقف وسأله: (أين أصلي؟)، فقال: (مكانك صل) فقال: (أخشى إن صليت فيها أن يغلبكم المسلمون عليها ويقولون هنا صلى أمير المؤمنين.)، وابتعد عنها رمية حجر وفرش عباءته وصلى وضمن ما عرف بالعهدة العمرية بعدم جواز مساس المسلمين بالموضع الذي صلى به .هل يا ترى فهمنا حقا ما قصده عمر بهذا الموقف وأخذنا بوصيته وأن الإسلام قد جاء محترما العقائد الأخرى وبيوت عبادتها وإن جاء مهيمنا عليها لا ليمحقها ويمحوها ويستعلي عليها بل ترك للناس حرية العقيدة والعبادة والثواب والعقاب على الله

(وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (الكهف ٢٩)) ؟!

الحقيقة أن إجابة هذا السؤال لابد وأن نستقيها من التطبيق العملي والذي شهد حيودا كبيرا سواء في هذا الموقف أو في الفتوحات الإسلامية اللاحقة..حيث بنى المسلمون مسجد "عمر بن الخطاب" في موضع صلاته بالكنيسة ويقع تحديدا في الفناء الجنوبي من كنيسة القيامة في حارة النصارى بمدينة بالقدس وأخذ شكله الحالي في عهد الأفضل بن صلاح الدين ..أما بشأن الفتوحات اللاحقة فكانت بيوت العبادة تنهب عن آخرها وتهدم وتتحول إلى مساجد وهذا من أفدح أخطاء الفتوحات الإسلامية لو حكمنا ضمائرنا بعض الشيء ...

والحقيقة أن أشد ما يدهشني هو حجم المراثي الشعرية في الحزن على ضياع مساجد الأندلس مثلا وهي في الأساس كان أغلبها كنائس تحولت لمساجد ثم عادت حينما دارت الدائرة على المسلمين وخسروا بعض أملاكهم فلو احترمنا بيوت العبادة الخاصة بالآخرين لحفظوا لنا هذا الصنيع وعاملونا بالمثل ...

وفيما يلي نص العهدة العمرية إحدى أهم الوثائق الدالة على روح التسامح الإسلامي والتي لابد وأن تقرأ وتفهم بعناية وتصبح دستورا للتآخي ومبادىء حسن الجوار داخل الوطن الواحد :

"بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله، عمر، أمير المؤمنين، أهل إيلياء من الأمان.. أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها... أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينقص منها ولا من حيِّزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضارّ أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يُعطوا الجزية كما يُعطي أهل المدائن. وعليهم أن يُخرِجوا منها الروم واللصوص. فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا أمنهم. ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بِيَعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بِيَعهم وصلبهم حتى يبلغوا أمنهم. فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن شاء سار مع الروم. ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. كتب وحضر سنة خمس عشرة هجرية. شهد على ذلك: خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان".

نأتي للنهاية وسبحان الله فكما جمع الله بطلي هذه الحلقة فاتحين لهذه البقعة المقدسة فقد أعزهما الله أيضا ببلوغ الشهادة فأبي عبيدة استشهد مع خمسة وعشرين ألفا وقيل ثلاثين ألفا من المسلمين في طاعون عَمْواس

(أي عَمَّ، ووآسَى وقيل نسبة إلى بلدة صغيرة في فلسطين بين الرملة وبيت المقدس) وهو من توابع طاعون جستنيان الذي امتد فترة طويلة وقد وقع في ولاية بلاد الشام بعد فتح بيت المقدس، وسُميت هذه السنة بعام الرمادة لما حدث بها من المجاعة في المدينة المنورة أيضًا. أما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فطعنه غلام مجوسي وقيل نصراني وأسلم يعمل بالحدادة والنجارة والنقاشة يدعى "أَبُو لُؤْلُؤَةَ الْمَجُوسِيُّ" ويقال له: "فيروز النهاوندي" غلام المغيرة بن شعبة عامل الكوفة بخنجر ذات نصلين ست طعنات وهو يصلي الفجر بالناس وبحسب بعض الروايات أن "أبا لؤلؤة" حقد على "عمر" لأنه لم يخفف عنه الخراج الذي فرضه عليه سيده "المغيرة" وهو درهمان في كل يوم ...وقيل أنها كانت ضمن مؤامرة فارسية مسيحية يهودية دبر لها "كعب الأحبار" اليهودي اليمني المعتنق للإسلام الذي تحدثنا عنه من قبل وهو من أكثر من أدخلوا الإسرائيليات في تفسير القرآن و "الهُرمُزان" وهو من قادة الفرس في معركة القادسية وقيل من ملوك المجوس الفرس على منطقة الأحواز و"جفينة" النصراني وهو من مسيحيي "الحيرة" وقيل "نجران" أرسله سعد بن أبي وقاص إلى المدينة ليعلم أبناءها القراءة والكتابة وقيل أن "عبد الرحمن بن أبي بكر" قد رأى اجتماع الهرمزان وفيروز وجفينة النصراني ليلة الحادث وأن الخنجر الذي قتل به عمر سقط منهم سهوا ...

الفصل السابع

فاتحـــان على أبواب الصين والهـــند

يعتبر الموجه لهذين الفتحين العظيمين وإن لم يكتملا شخصية محورية بارزة مثيرة للجدل وكثيرة التناقضات وقد كانت ملء الأسماع والأبصار في العهد الأموي إنه "الحجاج بن يوسف الثقفي"..

كان ميلاد الحجاج بمنازل ثقيف بالطائف وكان اسمه بحسب الروايات "كليب" وأبدله بالحجاج وأمه هي "الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي الصحابي الشهيد" ..كانت نشأته وبداية عمله بالقرآن وعلومه فقد تعلم منذ نعومة أظافره القرآن الكريم والحديث وآداب اللغة واشتغل بعدها بتعليم القرآن وعلومه للصبية والنشء عملا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "خيرُكُم مَن تعلَّمَ القرآنَ وعلَّمَهُ" ..لكن ثمة أحداث غامضة حولت حياته بالكلية مما يرضي الله إلى ما يغضبه ومن تعليم القرآن إلى سفك الدماء دون وازع من ضمير ..

تزعم بعض الروايات أن الصراع بين "عبد الله بن الزبير" والأمويين في ذلك الوقت قد طال الطائف وأنه ربما كان اضطهاد اتباع بن الزبير لبعض أهل الطائف قد نال من الحجاج ودفعه لهجران موطنه والانطلاق إلى الشام فالتحق بخدمة "روح بن زنباع" قائد الشرطة في بلاط الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وكان لروح العزيمة والشدة والحزم والصرامة للحجاج مع أقرانه وقع في نفس "روح" والذي قدمه للخليفة عبد الملك

وزكاه لديه ومن هنا كانت البداية وبدأ بطلنا مشواره السياسي كرجل للنظام حاميا له ومقاتلا دونه ورافعا شعار

لا صوت يعلو على شرعية الحاكم ولو كان القرآن ذاته ومن هنا كانت نقاط التلاقي مع الخليفة "عبد الملك بن مروان" والذي بدأ حياته هو الآخر بعلوم القرآن والتفقه في الدين حتى إذا أتته الخلافة وكان فى حجره مصحف فأطبقه وقال: "هذا فراق بينى وبينك."

ضم عبد الملك في البداية الحجاج للجيش الذي قاده لحرب "مصعب بن الزبير" فأبلى بلاء حسنا في حشد الناس للحرب بالعسف والشدة وقتل المتخلفين عن الالتحاق بالجيش وحرق ديارهم وانتهت المعركة بمقتل مصعب عند "دير الجاثليق" وإرسال رأسه لأخيه "عبد الله بن الزبير" في مكة.

كان "عبد الله بن الزبير بن العوام" من كبار الصحابة وهو ابن السيدة أسماء بنت أبي بكر "ذات النطاقين" وقد رفض بيعة يزيد بن معاوية كما فعل الحسين بن علي واستشهد في كربلاء جراء ذلك ..وكان رأي الصحابة في أن سيدنا معاوية بن أبي سفيان قد نقض عهده مع سيدنا الحسن بن علي بجعل البيعة شورى بين المسلمين من بعده فجعلها في ابنه "يزيد" وحشد الناس لمبايعته ترغيبا وترهيبا في أول ابتداع للتوريث في الحكم الإسلامي وهي بدعة كان لها مزاياها في ضمان عدم التفرق بين المسلمين والصراع بينهم حول تسمية الحاكم القادم ومساوئها في حصر الخلافة في أشخاص كل رصيدهم هو دمائهم الذهبية بحكم الانتماء لقبيلة

أو طائفة أو أسرة دان الناس لمؤسسها خوفا أو طمعا وقد لا يكونوا موضع إجماع المسلمين أو ليسوا على الكفاءة والكفاية المطلوبين وما أكثر الفترات التي شغل فيها خلفاء غير أكفاء فنكبت الأمة بهم ومنهم ومعهم بسبب هذه البدعة ...

اتخذ ابن الزبير من مكة عاصمته وبايعه أهل الحجاز واليمن فيما دارت الحرب بينه وبين الأمويين ولكنهم لم يبلغوا منه وطرًا إلى أن ظهر الحجاج على مسرح الأحداث ..وهنا تتعدد الروايات حول ثقة عبد الملك بالحجاج التي جعلته على إمرة قواته لحرب ابن الزبير وقد قال عنه "الحجاج جلدة ما بين عيني، ألا وإنه جلدة وجهي كله "ومنها ما جعل طموح الحجاج هو السبب وأنه أقنع عبد الملك بأنه شاهد في منامه أنه أخذ ابن الزبير وسلخه..المهم أن الحجاج حاصر مكة ونصب المنجنيق (آلة حربية تستخدم لقذف الحجارة والسهام) على جبل أبي قبيس المشرف على مكة من جهة الشَّمال والشرق ورمى الكعبة به حيث كان ابن الزبير وما بقي من أنصاره متحصنين ومع استشهاد ابن الزبير أصبح الأمر في يد الأمويين بالكامل ودانت الأقطار الإسلامية لهم بالطاعة...

كما تصدى الحجاج لحركة التمرد التي قادها أحد قادة الأمويين وهو "عبد الرحمن بن الأشعث" وكان معتدا بنسبه إلى ملوك مملكة كندة وواصفا الحجاج بابن أبي رغال(كان دليل أبرهة الحبشي في الوصول للكعبة وهدمها).. وانتهى الصراع بهزيمة عبد الرحمن في موقعة "دير الجماجم" وفراره ثم انتحاره...

لم يتفق المؤرخون الشيعة والسنة حول كراهية شخص مثلما اجتمعوا على كراهية الحجاج فكالوا له كل الصفات الذميمة فوصفه الحسن البصري بعذاب الله الذي لا سبيل لدفعه سوى بالاستكانة والتضرع لله بزوال الغمة كما اتهمه البعض بالسرعة في الصلاة والاغترار بالنفس والدنيا .. كما وصفته السيدة أسماء بنت أبي بكر (ذات النطاقين) أم عبد الله بن الزبير بالمبير المهلك مستندة في ذلك لحديث النبي صلى الله عليه وسلم ذلك أن الحجاج بعد مقتل ابنها صلبه على جذع نخلة فمر به عبد الله بن عمر ورثاه قائلا " أَمَا وَاللَّهِ لَأُمَّةٌ أَنْتَ أَشَرُّهَا لَأُمَّةٌ خَيْرٌ." فلما بلغ الحجاج ذلك أمر بإنزاله ودفنه بمقابر اليهود خشية استفحال الرأي العام المعارض ضده بين جمهور الصحابة والتابعين وقيل أن الأمر آتاه من عبد الملك بن مروان حينما بلغه حزن السيدة أسماء على ابنها المصلوب وبكائها عليه ونهر الحجاج لها في قسوة كما قيل أن الحجاج استدعاها إليه فأبت فهددها إن لم تحضر لَ"تَأْتِيَنِّي، أَوْ لَأَبْعَثَنَّ إِلَيْكِ مَن يَسْحَبُكِ بقُرُونِكِ أي يسحبها من ضفائر شعرها فامتنعت فذهب إليها مغاضبا وقال: "كيفَ رَأَيْتِنِي صَنَعْتُ بعَدُوِّ اللهِ؟" قالَتْ: "رَأَيْتُكَ أَفْسَدْتَ عليه دُنْيَاهُ، وَأَفْسَدَ عَلَيْكَ آخِرَتَكَ؛ بَلَغَنِي أنَّكَ تَقُولُ له: يا ابْنَ ذَاتِ النِّطَاقَيْنِ(كان يعاير ابن الزبير بأن أمه خادمة تحقيرا لفضلها العظيم أثناء الهجرة النبوية الشريفة)، أَنَا وَاللَّهِ ذَاتُ النِّطَاقَيْنِ، أَمَّا أَحَدُهُما فَكُنْتُ أَرْفَعُ به طَعَامَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ وَطَعَامَ أَبِي بَكْرٍ مِنَ الدَّوَابِّ، وَأَمَّا الآخَرُ فَنِطَاقُ المَرْأَةِ الَّتي لا تَسْتَغْنِي عنْه، أَمَا إنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه

وَسَلَّمَ حَدَّثَنَا أنَّ فِي ثَقِيفٍ كَذَّابًا وَمُبِيرًا، فأمَّا الكَذَّابُ فَرَأَيْنَاهُ، وَأَمَّا المُبِيرُ فلا إِخَالُكَ إِلَّا إِيَّاهُ،" فتركها صامتا ولم يأت إليها مرة أخرى.

كما رماه الكثيرون بالكفر وقد بنوا ذلك على أساس ما نسب إليه من تعظيم مقام الخلافة على الرسالة في قوله " رسول أحدكم في حاجته أكرم عليه أم خليفته في أهله" ولنطقه بالكفر مرارا على سبيل التهكم والاستخفاف في قوله" ألا أن الحجاج كافر قالها مرارا ثم أردف :كافر يا أهل العراق باللات والعزى" وفي قوله" الحجاج كافر ثم اتبعه بالقول : الحجاج كافر بيوم الاربعاء والبغلة الشهباء."

كما نسبوا إليه قوله عن نفسه لعبد الملك أنه "لجوج حقود حسود" وأن عبد الملك قال له :"إذا بينك وبين إبليس نسب" وكذلك قوله كذلك عن نفسه "ما أعلم اليوم رجلاً على ظهر الأرض هو أجرأ على دم مني" وهي أمور تجافي المنطق أحيانا ولا يخفى ما بها من اختلاق وإن اقترف الحجاج بالفعل مجازر كثيرة صعب التماس العذر له فيها كما أنه حبس "أنس بن مالك" الصحابي الكبير وخادم النبي صلى الله عليه وسلم لأنه ساند عبد الرحمن بن الأشعث...

المثير هو ظهور ابن تيمية المرجع في كل العلوم لدى البعض دون رصيد كافي من المعرفة الشاملة فيها جميعا ودون أن يكون من شهود بعض الوقائع التي يقطع بعدم حدوثها فهو يدافع عن الحجاج وأنه كان معظما للكعبة ولم يكن عدوا لها ولم يرمها بمنجنيق أصلا ..

لم يسلم الحجاج من المرويات الشعبية الطريفة فهو رمز الاستبداد والطغيان الذي يوقع بالناس ويتصيدهم فيسأل إعرابي : "كيف سيرة الحجاج فيكم؟" فيجيب الأعرابي: "ظلوم غشوم لا حيّاه الله ولا بياه". قال له: "فلو شكوتموه إلى أمير المؤمنين عبد الملك؟"فقال الأعرابي: "هو والله أظلم منه وأغشم، فعليه لعنة الله". وفجأة أحاط الجند بالأعرابي الذي عرف أنه كان يخاطب الحجاج ..فصاح بالحجاج قائلا : "أتدري من أنا؟" قال الحجاج: "لا، من أنت؟" قال: "مولى بني أبي ثور أجنّ مرتين من الشهر وهذه إحداهما "فضحك الحجاج وأخلى سبيله.

عين الحجاج في البداية واليا على مكة ثم ولاه "عبد الملك" العراق فدخلها ملثما بمشهد أشبه بالغزاة لا الولاة وخطب فيهم مستشهدا بأبيات الشاعر "سُحَيم بن وثيل بن عمرو الرياحي اليربوعي التميمي" وهو شاعر أدرك الجاهلية والإسلام يقول فيها :

"أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني" ثم قال "والله يا أهل العراق إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، والله لكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى". ثم أمر غلام له بقراءة أمر أمير المؤمنين بتوليته فقال " اقرأ كتاب أمير المؤمنين يا غلام": فقال القارئ: "بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالعراق من المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله" فسكتوا فقال الحجاج من فوق المنبر: "أسكت يا غلام"، فسكت، فقال:" يا أهل الشقاق، ويا أهل النفاق ومساوئ الأخلاق. يسلم عليكم

أمير المؤمنين فلا تردون السلام؟ هذا أدب ابن أبيه؟ والله لئن بقيت لكم لأؤدبنكم أدباً سوى أدب ابن أبيه، ولتستقيمن لي أو لأجعلن لكل امرئ منكم في جسده وفي نفسه شغلاً، اقرأ كتاب أمير المؤمنين يا غلام"، فقال: "بسم الله الرحمن الرحيم" فلما بلغ إلى موضع السلام صاحوا وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته، فأنهاه ودخل قصر الإمارة. ".

كل هذا لا يمنع أن الحجاج قام بأعمال إدارية وتنظيمية وعمرانية كبيرة فسك الدرهم والدينار وجعلهما باللغة العربية وقيل أول من كسا الكعبة بالديباج وهي مسألة مختلف عليها، وهو أول من دهن السفن بمادة القير، واستخدم في صناعتها المسامير واهتم بالنباتات والبذور المستخدمة في الطب ومنها استخلاص دهن البنفسج الذي اشتهرت به الكوفة كما أمر بتجديد بئر "ياقوتة" في مكة والتي حفرها بمنى "أبو بكر الصديق"، وبناء سدود لتخزين المياه في الحجاز وإصلاح الأراضي الزراعية على نهر الفرات، كما شيد مدينة "النيل" شمالي الحلة، وكذلك مدينة واسط، والتي اتخذها مكانا لإقامته كما قدم خدمة جليلة لمتعلمي القرآن الكريم بأن أمر نصر بن عاصم الليثى و ويحيى بن يعمر وهما من تلامذة أبي الأسود الدؤلي الكناني في علم النحو البارزين بتنقيط القرآن خشية التحريف واللحن فيه كما قسم القرآن على سبعة أجزاء متساوية من حيث عدد الحروف..

هذه الخدمة الجليلة جعلت الخليفة عمر بن عبد العزيز يغتبطه بعد وفاته إثر دعاء سعيد بن جبير عليه قائلا : "ما حسدت (الصواب اغتبطت) الحجاج على شيء حسدي (الصواب غبطتي) إياه على حبه القرآن وإعطائه أهله عليه، وقوله حين حضرته الوفاة اللهم اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل."

من مآثر الحجاج أنه رعى الفتوحات الإسلامية التي انطلقت في ربوع الصين والهند وتعهد الفاتحين قتيبة بن مسلم ومُحَمَد بن القَاسِم الثَقفي بالرعاية والاهتمام وربما تطرق الدعم إلى أبعد من ذلك من خلال التدخل في خطط الحرب ذاتها وإبداء بعض الآراء من الحجاج في فتح بعض البؤر الحصينة..

أما الفاتح الأول فهو "قتيبة بن مسلم بن عمرو بن حصين بن ربيعة أبو حفص الباهلي"، وكان أبوه من الموالين لمصعب بن الزبير والي العراق شقيق عبد الله بن الزبير (وقد أتينا على ذكره) فكان من المحسوبين على أعداء الأمويين ورغم ذلك كان لمهارات ابنه ومواهبه في القتال والفروسية الصوت الأجهر في دفع والي خراسان "المهلب بن أبي صفرة" لتقديمه للحجاج بن يوسف وكان بين الحجاج والمهلب مصاهرة حيث تزوج الأول من ابنة الثاني "هند" وإن كان الطلاق قد وقع بعد أن خشي الحجاج على نفسه من أن تقتله بعد أن قبض على أخيها "يزيد" لتهاونه في القبض على بقايا المنتمين لابن الأشعث (يعود ليزيد الفضل في صناعة المهلبية) وعذبه بالسجن .. كان للحجاج فراسة في رجاله فتأكد من

كفاءة قتيبة العسكرية وأنه الرجل الأنسب لمهمة التمدد الإسلامي في آسيا ففتح حوض نهر سيحون والمدن المجاورة له ودخل مدن خوارزم وبخارى وسمرقند وبلخ وكاشغر والتي أقام قاعدة إسلاميّة فيها وكانت هذه أبعد نقطة وصلت إليها الجيوش الإسلاميّة في شرق آسيا كما كان لفتوحات قتيبة أثر كبير في إدخال الأتراك شرقي نهر المرغاب وفي بلاد ما وراء النهر في الإسلام.

ومن القصص الشعبية الغريبة في بعض جوانبها وتفاصيلها تلك المتعلقة بالسفارة الدبلوماسية التي أرسلها لملك الصين (الإمبراطور شوان زونغ) والتي تألفت من عشرة رجال وقيل اثني عشر على رأسهم "هبيرة بن مشمرج الكلابي" وأوصاهم قتيبة أن ينقلوا للملك قسمه " أني لا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم". وعلى مدار ثلاثة أيام من وفادتهم بدلوا ثيابهم وهيئتهم في مجلس الملك ففي اليوم الأول لبسوا "ثيابا بياضا تحتها الغلائل وتطيبوا ولبسوا النعال والأردية" فسأل الملك الحاضرين في مجلسه عن انطباعهم عن مظهر الوفد الإسلامي فقالوا: "رأينا قوما ما هم إلا نساء" وقيل أن سؤال الملك لهم في اليوم الأول كان عن كيفية عبادتهم لإلههم؟ فأدوا الصلاة على عادتهم فلما ركعوا وسجدوا ضحك منهم فلما كان اليوم الثاني

"لبسوا الوشي والعمائم الخز والمطارف" فكان انطباع الحاضرين لدى الملك أنهم "أشبه بهيئة الرجال" فلما كان اليوم الثالث وقد سألهم الملك عن هيئتهم في الحرب "شدوا سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر وأخذوا

السيوف والرماح والقسي وركبوا".فقال الملك لأصحابه: "كيف ترونهم؟" قالوا "ما رأينا مثل هؤلاء".فلما كان المساء استدعى الملك "هبيرة" وقال له : "قد رأيتم عظم ملكي وأنه ليس أحد منعكم مني وأنتم في يدي بمنزلة البيضة في كفي وإني سائلكم عن أمر فإن لم تصدقوني قتلتكم".قال: "لِمَ صنعتم بزيكم اليوم الأول والثاني والثالث ما صنعتم؟". قال هبيرة: "أما زينا الأول فلباسنا في أهلنا والثاني فزينا إذا أمنا أمراءنا والثالث فزينا لعدونا". قال: "ما حسن ما دبرتم دهركم فقولوا لصاحبكم ينصرف فإني قد عرفت قلة أصحابه وإلا بعثت إليكم من يهلككم ويهلكه". فرد هبيرة مهددا : "كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل ولسنا نكرهه ولا نخافه وقد حلف أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية" ...رأي الملك أن التصرف الأمثل هو مهادنة المسلمين وتحقيق مطالبهم ولكن مع احتفاظه باستقلال كامل لبلاده فأبر بقسم قتيبة وأرسل إليه الجزية وهدية وأربعة من غلمانه وغلمان الملوك ليختمهم وقيل بعث أربعمائة من أولاده وأولاد الملوك وصحفا من ذهب عليها تراب من أرضه ليطأها فقبلها قتيبة جميعا وهذه القصة إن صحت في إطارها العام وخاصة الشق الأخير المتعلق بهشاشة العرض الإسلامي وانحصاره في عرض أزياء غريب ثم السعي للملمة القضية في هيئة البر بقسم ودفع الجزية دون مد دعوي حقيقي على الأرض لنشر الدعوة الإسلامية وضمان وصولها للناس دون

قيود فهي تعكس تواضع الجانب الفقهي والديني لدى بعض القادة وربما كان منهم قتيبة في بعض اجتهاداته الدينية ولربما جاء اختيار بعض القادة في الفتوحات المتأخرة غير محكوما سوى بالخبرة القتالية وحسب دون النظر للأهلية الدينية والفقهية القوية أو حتى عقد دورات تدريبية للمقاتلين لتزويدهم بالأمور الدينية والفقهية الأساسية وما لا يسع المقاتل جهله منها قائدا كان أو مقودا أوتابعا..وسوف يتضح أكثر ما أقصده في فتح سمرقند علي يد قتيبة ففي خلافة الخليفة "عمر بن عبد العزيز" شكى كهنة سمرقند للخليفة أن قتيبة قد فتح بلادهم عنوة دون أن يدعوهم للإسلام أو الجزية أو يمهلهم ثلاثا حتى ينظروا في أمرهم بالمخالفة لتعاليم الإسلام في الغزو فاستدعى الخليفة قتيبة وأمر بالتحقيق في الواقعة ليتبين من نتائج التحقيق أن القائد بنى موقفه على أن الحرب خدعة وعلى فرضية استباقية بأن أهل سمرقند سيحذون حذو البلدان المتاخمة في القتال ورفض الإسلام والجزية فقال قاضي التحقيق : "يا قتيبة، ما نصر الله هذه الأمة إلا باجتناب الغدر، وإقامة العدل" ثم قضى بإخراج الجيش الإسلامي من سمرقند

ومنح أهلها حرية الاختيار فكان الاختيار أمام ما رأوه من عدل هو الدخول في الإسلام أفواجا..

هذه الواقعة ومن منظور تاريخي بحت تقطع بعدم صحة مقتل قتيبة بن مسلم على يد "وكيع بن حسان التميميّ" بعدما شق عصا الطاعة لسليمان بن عبد الملك خليفة المسلمين وحشد لمقاتلته وكان سليمان

بعكس أخيه الوليد يكره كل ما يمت للحجاج بصلة وربما كانت قصة الخروج عن الطاعة حقيقية ولعب يزيد بن المهلب والمقرب من الخليفة سليمان دورا في التهدئة بين الطرفين والعفو عن قتيبة..

نأتي للفاتح الثاني وهو "مُحمَد بن القَاسِم الثَقفي" والذي يلتقي مع الحجاج بصلتي قرابة وقرب منه فقد كان وَالِده ابن عم الحجاج وواليًا على البصرة ومن هنا كان اختيار الحجاج لمحمد على الرغم من حداثة عمره(كان في السابعة عشرة من عمره) للقيام بهذه المهمة الصعبة في بلاد السند ووفر له كل الإمكانيات المطلوبة للنجاح وقد كان ..

بدأت إرهاصات هذا الحدث الهام مع غارات قراصنة بلاد السند من الديبل على سفينة مسلمة تحمل نساء من الجالية المسلمة بجزيرة الياقوت في طريقهن إلى العراق وقيل أن ذلك كان بتواطؤ من ملكهم "داهر" أو على الأقل كان يعلم ولم يحرك ساكنا وقيل أن إرسال النساء للحجاج كان بحسن نية من ملك السند لتوطيد العلاقات لكن حدث مالم يكن بحسبانه.. المهم وصلت استغاثات النساء المسلمات بالحجاج "وا حجاجاه" مما ألهب حميته ونخوته ففاوض الحجاج "داهر" لاستعادة النساء والبحارة بالطرق السلمية فتنصل داهر من المسؤولية والحادث برمته وأنه لا سلطان له على القراصنة باعتبارهم خارجين على القانون..

فاستشاط الحجاج غضبا وقرر غزو بلاد السند وهي باكستان حاليا ولم يكن غزو الحجاج هو الأول لها فقد بدأ في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حينما أرسل عامله على البحرين "عثمان بن أبي العاص"

جيشًا بقيادة أخيه "الحكم" إلى ساحل الهند وصل مدن "تانة" و "بروص" ثم إلى "خور الدبيل" وحقق عدة انتصارات، ولكن الخليفة عمر خشي على المسلمين من بُعد هذه الديار، ولما تولى الخليفة "علي بن أبي طالب" رضي الله عنه الخلافة أرسل "الحارثة بن مرة العبدي" إلى السند فأغار على أطرافها وظفر منها وظل بها حتى استشهد في عهد "معاوية" وحينما آلت الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان أمر "المهلب بن أبي صفرة" بغزو السند، ثم غزاها عبد الله بن سوار العبدي، ثم سنان بن سلمة الهذلي ففتح "مكران" ومصرها وكان هذا أول جزء من غربي البنجاب يدخل في ظلال الدولة الإسلامية ثم اختفت بلاد السند من سجل الأحداث على مسرح التاريخ الإسلامي وأصبحت مجرد مكان لجمع الخراج في عهد الأمويين إلى أن أولاها الحجاج اهتمامه مرة أخرى وجعلها من أولوياته خاصة بعد محاولات فاشلة لغزوها وتحرير الحرائر المسلمات قتل على إثرها اثنين من قادته هما «عبد الله بن نهبان» و «بديل بن طهفة البجلي» فأرسل محمد بن القاسم بجيش مؤلف من عشرين ألف مقاتل باتجاه الهند حيث مر بمكران وفتح مدن "قنزبور" و"أرمائيل" ثم انطلق إلى مدينة "الدبيل" بيت القصيد وأمنع مدن السند فاحرز انتصارات عظيمة بفضل سعة حيلته ومهارته واستخدامه المنجنيق الضخم المسمى "العروس " والذي كان يحتاج لخمسمائة رجل لتشغيله حيث وجهه باتجاه معبد هندوسي مقدس لصنم لهم على قمته سارية خشبية في نهايتها راية حمراء مقدسة تحركها الرياح فكان سقوط السارية وانكسارها فأل شؤم

للهندوس فانهارت معنوياتهم وبني المسلمون بالمدينة مسجدا ..بعد ذلك أصبح ملك السند "داهر" في مواجهة محمد بن القاسم وكان ملك السند يعتمد على "الأفيال" سلاح المدرعات في الماضي وبعد مواجهات عنيفة بين الطرفين قتل داهر وانكسر جيشه وأحرقت أمراة داهر نفسها هي وجواريها فيما وقعت "صيتا" ابنته في الأسر وفتح المسلمون مدينتي "راور " و"رهماناباذ" كما استسلم أقليم "ساوندري" واعتنقوا الإسلام كما فتح محمد بن القاسم مدينة "الملتان" معقل البوذية بالسند والمدينة ذات الثراء..

شجعت هذه الفتوحات والوصول للهدف الأكبر منها وهو رأس داهر المسلمين وعلى رأسهم محمد بن القاسم للمزيد من التقدم وذلك للقضاء على "دوهر" الساعد الأيمن لداهر والمسيطر على إقليم "الكيرج" لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن ففي خضم هذه الأحداث يموت الحجاج الظهير القوي المساند لمحمد وفتوحاته لكن ذلك لم يفت في عضده وكان ذا عزم وحماس وهمة فهزم دوهر والذي قتل ولحق بصاحبه داهر ثم أكمل الفتح فدانت له مدينة "سرست" وكان أهلها بحارة استفاد منهم المسلمون ثم أرسل رسله إلى ملك "قنوج" فاساء للرسل فعزم محمد على حربه لكن موت الخليفة الوليد بن عبد الملك وتوليه أخيه سليمان قلبت كل الموازين وكانت بمثابة الطامة الكبرى للفاتح الشاب حيث عزل محمد بن القاسم وولي مكانه "يزيد بن أبي كبشة السكسكي " والذي قبض على محمد بن القاسم بتهمة تبدو غريبة في هذه الأزمنة وهي

اغتصاب "صيتا" ابنة "داهر" ملك السند بعد قتل أبيها رغما عنها وحمل مقيدا في الأغلال إلى العراق ليحاكمه واليها "صالح بن عبد الرحمن" فأودع في سجن واسط حيث لاقى صنوفا من العذاب حتى مات ...
والحقيقة أن التهمة التي عوقب بها محمد بن القاسم تبدو سياسية أكثر من كونها دينية شرعية ذلك أن السبيّة تصبح مملوكة له بملك اليمين، يجوز له وطؤها ولكن بعد أن تستبرئ، لقوله تعالى في سورة النساء: (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۖ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ..آية ٢٤). لذلك فقد ذهب البعض أن ما حدث له كان جزء من عقاب جماعي قام به سليمان بن عبد الملك لرجالات الحجاج كما تحدثنا في موضوع قتيبة وقيل أنه كانت رغبة من والي العراق الجديد صالح بن عبد الرحمن في الاقتصاص من الحجاج ميتا وقد قتل الحجاج أخا له يدعى "آدم" فقتل محمد بمنطق الثأر إنما هو رجل برجل!!!!

ويقال أن محمد بن القاسم قد أنشد وهو مقبل على مشارف الموت :
"أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر"
والأبيات للشاعر العرجي "عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان الأموي القرشي"ونظرا لأن الشاعر قال هذه الأبيات في زمن الخليفة هشام بن عبد الملك وقد سجنه والي مكة "محمد بن هشام" أي في زمن

لاحق على زمن "محمد بن القاسم" وبالتالي فالغالب أن "محمد" لم يستعر هذه الأبيات.

وقيل أنه قال أيضا :

"فلئن ثويت بواسط وبأرضها

رهن الحديد مكبلًا مغلولا

فلرب قنية فارس قد رعتها

ولرب قرن قد تركت قتيلا"

السـيرة الذاتية للمـؤلف

د.محمد فتحي عبد العال

من مواليد الزقازيق محافظة الشرقية بمصر عام ١٩٨٢

المؤهلات العلمية :

١-بكالوريوس صيدلة جامعة الزقازيق ٢٠٠٤.

٢-دبلوم الدراسات العليا في الميكروبيولوجيا التطبيقية جامعة الزقازيق٢٠٠٦ .

٣-ماجستير في الكيمياء الحيوية جامعة الزقازيق ٢٠١٤.

٤-دبلوم الدراسات العليا في الدراسات الإسلامية من المعهد العالي للدراسات الإسلامية٢٠١٧ .

٥-شهادة إعداد الدعاة من المركز الثقافي الإسلامي التابع لوزارة الأوقاف ٢٠١٧.

٦-دبلوم مهني في إدارة الجودة الطبية الشاملة من أكاديمية السادات للعلوم الإدارية ٢٠١٧.

الفـــــهرس

كتاب (صفحات من التاريخ الإسلامي)

دراسة: د. محمد فتحي عبد العال

تنسيق: إيمان محمود محمد

غلاف: محمد مخلوف

رقم الايداع: 2022/2041م

الترقيم الدولي: 978-977-8952-02-5

ابن معيط للطباعة

ت: ٠١٢٢٢١٢٣٥٨٣٣ ـ ٠١٠٦٢٧٦٥٧٣٦

بريدالكتروني: ahmedragbmait@gmail com

(الطبعة الاولى ٢٠٢٢م)